

رواية

خوان رينخيل

ترجمة: حسن بوتكى

مخيلة قاتل



إهداء لـ..

الشب الزهقان واليوم خلص فحص

ونفسه يقرأ بوليسي



مخيّلة قاتل

خوان خاثينتو مونيوث رينخيل

Author: Juan Jacinto Muñoz Rengel

El Asesino Hipocondriaco

ترجمها عن الإسبانية:
حسن بوتكى

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

Translated from Spanish by:
Hassan Boutakka

Designed by:
Sarwar Murad

الطبعة الأولى | سبتمبر 2021

ISBN: 978-9921-712-48-3



+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

رواية

مخيّلة قاتل

خوان خاثينتو مونيوث رينخيل

ترجمة

حسن بوتكى



2021

Author: Juan Jacinto Muñoz Rengel

El Asesino Hipocondriaco





2021


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ملاحظة هامّة:

جاء عنوان الرواية الأصلي (El Asesino Hipocondriaco) ليمهّد فهم أحداثها، وليفكّك رموزها، حيث يشير مصطلح «هايبوكوندريا» إلى متلازمة التوهم المرضي، وهو ما لم يلمّح إليهِ المؤلف في العمل؛ لكنّنا ارتأينا اختيار عنوان آخر يحلّق حول معنى النص.




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

إلى آدا، من أجل آدا.




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

١ مكتبة



لم يتبق لي سوى يوم واحد من حياتي، بعد أن استرخصت خمسة عشر مليار يوم على الموت، لم يفضل لي سوى يوم واحد آخر. أو اثنين، كحد أقصى. أنا على يقين تام بأنني سأموت بعد يوم واحد من اليوم. غداً، على الأكثر. سوف يقع تعارض مع جميع قوانين الطبيعة إذا بقي جسدي، الذي اعترته أمراض وخرقته سقام، على قيد الحياة يومًا آخر. لكن، لا يمكن أن أرحل قبل أن أضع حدًا لحياة إدواردو بلايستين. فقد دفعوا لي مقدمًا مقابلًا لذلك، وأنا رجل ذو أخلاق كانطية.

هذا الصباح في الساعة ٧:٤٠، قمت بقياس نبضات قلبي باستخدام سبابتي وإبهامي في الوجه الخلفي لمعصمي، اثنتان وثمانون نبضة في الدقيقة، وعلى الجانب الأيسر من الرقبة، ست وثمانون نبضة. في تلك اللحظة كنت أتنفس ثماني عشرة مرة في الدقيقة. ثم قمت بقياس ضغط دمي، مائة وسبعة وعشرون ميليمترًا زئبقيًا في القصوى، وأربعة وسبعون ميليمترًا في الدنيا. تناولت في فطوري شايًا أخضر، يحتوي

على بوليفينولات مضادة للسرطان، بدون حليب، لأن الكازين يقلل من فوائد الشاي على الجهاز الوعائي للقلب، وقطعتين من الخبز المحمص من الدقيق الكامل مع زيت الزيتون، وفاكهة البرقوق التي اعتدت تناولها كل صباح. بعد ذلك، انتظرت بضع دقائق وقمت بقياس درجة الحرارة في المعي المستقيم، سبعٌ وثلاثون درجة مئوية و جزءان عشريّان، أي درجة واحدة أكثر من حرارة الفم.

نهضت وقمت بتهوية المنزل محتفظًا بحرارته في حدود ست وعشرين درجة. وفي الساعة ٨:٢٠ قمت بقياس ضغط الدم مرة أخرى.

كل ما أتمناه هو أن أوفّق في الحفاظ على جسدي الضعيف حتى يبقى واقفًا بقية اليوم -هل يعني هذا أنني أطلب الكثير؟ يا إلهي، هل أنا أطلب المستحيل؟- وأستطيعَ اغتيال السيد بلايستين.



٢

أتتبع خطوات إدواردو بلايستين منذ سنة وشهرين. أستغرق كل وقتي في ذلك، لأني أحب أن أقوم بعملي بشكل جيد.

اليوم يوم ثلاثاء، لذلك أعلم أنه لن يتأخر في الظهور في شارع بيرخين دي لوس بيليغروس في زاوية تقاطعه مع شارع ألكلا، لأنه يتناول كل ثلاثاء قهوة جالساً على كرسي مرتفع في ستاريكس بجوار النافذة الزجاجية. وأعلم أنه لن يتأخر في الظهور لأن الساعة الآن ١٠:٢٢، ولم يسبق أن ظهر بلايستين قبل ١٠:٢٣ ولا بعد ١٠:٢٤، يمشي مشيًا خفيفًا، ببدلة مصممة عليه، وبمعطف مفتوح وحقيبة سميكة مغطاة بالجلد، يقبض عليها بإحكام بيده اليمنى، في شارع بيرخين دي لوس بيليغروس. ما عدا ذلك لا أعرف، لكن ينبغي الاعتراف للسيد بلايستين بضبطه للمواعيد.

مبدئيًا، ضبطُ الهدفِ لمواعيده يُسهّل العمل. كل روتين يساعد على التخطيط الأولي للقتل. رغم أنه في هذه الحالة، وإن كان ذلك يبدو متناقضًا، فلا أستطيع منع شعوري بأن

مثل هذا الالتزام الشديد بالمواعيد مرده إلى رغبته الدفينة في السخرية مني.

في الواقع، إدواردو بلايستين مضبوط المواعيد لدرجة أنني الآن، أنا المتمركز هنا بجانب الكشك عند مدخل مترو الأنفاق، المُخَبّأ خلف صحيفة إنجليزية، لأن هذه الصحف هي التي تغطينا أكثر نظراً لشكلها العريض، وبينما تُستهلك الثواني الأخيرة من ١٠:٢٤، بدأتْ تغمرني نوبة من القلق، تُولَد على شكل ضيق في صدري، وترتفع على شكل حرارة دموية إلى وجهي، ثم تجبرني على أن أزيل مِن فوق فمي اللثام الذي أحمي به نفسي من البرد، ومن الجراثيم، ومن كل أعداء صحتي ومهنتي.

أنا بجانب الكشك فريسة للقلق، وفي مثل هذه اللحظات لا أعرف ماذا أفعل؟! أنظر في كل الجهات. يتملكني الذعر، وأضع كذلك الصحيفة جانبًا ليبقى وجهي مكشوفًا. لا شيء من هذا سيكون خطيرًا جدًا إذا لم أكن متأكدًا من أن اليوم سيكون آخر يوم لي بين الأحياء. اليوم بالذات، اليوم الذي سأموت فيه لا يظهر إدواردو بلايستين، هدفي، في الشارع الذي يجب أن يظهر فيه وفقًا لروتينه الخاص. أشعر بضيق في التنفس. لا أستطيع التنفس. أفك زرًا من أزرار قميصي. ورغم أني أفتح فمي كثيرًا وأتنفس نسيم الشارع، لا أحس أن شيئًا يُرضي رئتيَّ. ويزداد الانقباض في صدري. وأيضًا الحرارة على خدّيَّ وأُذُنيَّ وعلى سطح جلد رأسي بكامله. لا بد أن أكون قد بلغت

بسهولة سبعًا وثلاثين درجة حرارية، وأربعة، ستة، ثمانية أجزاء من المائة.

عندما ظهر إدواردو بلايستين أخيرًا، في الساعة ١٠:٢٥، وهو يعبر زاوية من شارع بيرخين دي لوس بيليغروس، ويبتسم يمينًا ويسارًا وكأنه يتجول في بلدة صغيرة يعرف جميع الناس فيها، ومعطفه يلمع وكأن عليه صدأ نحاس بفعل تأثير المطر الخفيف. كان معدل ضربات قلبي قاب قوسين أو أدنى من مائة وخمس عشرة ضربة في الدقيقة وأنا أتنفس خمس مرات كل عشرِ ثوان.

هذا الهدف سيقتلني.

في المرات القليلة التي يتأخر فيها، أظن أنه يفعل ذلك فقط لزيادة معاناتي، لإزعاجي، ليجعلني أفقد رشدي. أما باقي المرات، فأظن أنه يحاول أن يكون دقيقًا جدًا في عاداته ومواعيده ليسبقني، ليكون أكثر دقة مني، ليتجنب بذلك موته المحتوم. لكن ليس بوسعه شيء ليفعله، لأنني، بالطبع، وفوق كل شيء، رجلٌ أضبط مواعيدي على الطريقة الكانطية.

٣



لم يترك إيمانويل كانط قط مدينته ومسقط رأسه كونيغسبيرغ، التي هي اليوم كالينينغراد الروسية، وكانت آنذاك بلدة بروسية صغيرة تنمو تحت حماية المقطع الأخير من نهر بريغيل، والذي كان مجراه حينذاك، وما زال إلى اليوم، يصب في بيستولا.

جميع سكان مدينة كونيغسبيرغ يعرفون عادات الفيلسوف. بصفته مدرسًا، كان يتبع خطوات لا مرونة فيها: أنجز عمله خلال أربعين سنة بدقة تحسب بالثواني ودون التغيب عن درسه ولو مرة واحدة. من العادة الثابتة أيضًا للسيد كانط أنه كان يتمشى كل مساء خلال ساعة محددة، من الخامسة إلى السادسة. كان يسير بمفرده دائمًا، أو محروسًا من لدن خادمه الأمين ويحاول تفادي أي لقاء مع أي أحد، حتى مع أقرب أصدقائه، لكيلا يجد نفسه مضطرًا إلى الحديث مع أيٍّ كانَ ولو من باب المجاملة، وبذلك يستطيع الحفاظ على فمه مغلقًا طوال الوقت، والتنفسِ عن طريق الأنف، وتجنب أمراض البلعوم، والحنجرة والشُّعَب الهوائية والرئتين.

في ١٥ يوليو ١٧٨٩، تمام الساعة الخامسة بعد الظهر، لم ير سكان كونيغسبيرغ، الذين تعودوا على هذه العادة، السيد كانط يرسم مسيرته المسائية. فحصوا ساعات جيوبهم، وساعات الواجهات والأبراج. كلها غير مضبوطة، كلها متقدمة عن الساعة الحقيقية. لقد اتفقت جميع ساعات المدينة على أن تتقدم. لكن بكم؟ بدقيقة، بعشر، بنصف ساعة؟ هذا الفاصل سمح للعديد من المواطنين باستغلال الفرصة لسؤال طلابه عما إذا كان المعلم مريضًا أو حصل له حادث ما. لكن السيد كانط قد أعطى دروس الفترة الصباحية، وتناول غداءه في وقته المعتاد وبشهية جيدة. اتفق قس الكنيسة ونائب محافظ المكتبة والصانع الرئيسي لمقابض العكاكيز في الشمال الغربي للبلاد كلها، وعناصر أخرى من القوى الحية في كونيغسبيرغ، وكونوا حشدًا، وتوجهوا إلى منزله. فتح لهم البابَ السيدُ لامبي، خادم الفيلسوف. وأمام سيل أسئلتهم، ورغم مقاطعاتهم له، حاول أن يجيبهم:

- لا، سيدي ليس لديه أي دائن. سيدي في مكتبه، يتأمل كما يفعل كل يوم... أعرف ذلك، أعرف أن سلوكه قد يبدو غريبًا... أرجو أن تقبلوا اعتذاره عن الإزعاج الذي تسبب فيه... هذا كل شيء. لن يحدث هذا مرة أخرى... البارحة اقتحم سكان باريس الباستيل، وسيدي يُعِدُّ درسًا خاصًا لطلبته... لا، لا يخطر ببالي أي ظرف آخر في العالم يمكن أن يجعل حادثًا مثل حادث اليوم يتكرر.

٤

فوق كل شيء، أنا رجل يحاصرني سوء الحظ. منذ أن بدأت أعقل، منذ أن كنت طفلًا ضعيفًا وهشًا، طاردني سوء الحظ في كل تحركاتي عبر العالم.

إذا أنا اخترتُ بين اتجاهين، فإن الآخر يكون هو الاتجاه الصحيح. إذا خرجت ومعي مظلتي، فسأتجول بها في المدينة طوال اليوم دون أن أستعملها. إذا أدرت الخد الآخر، فسيضربونني على قفاي كلها. إذا رفعت يدًا للمطالبة بشيء، فربما أعاني من انفلات عظم ترقوة الكتف. يكفي أن أفقد مظلتي ليوضع حد للجفاف الأكثر استدامة.

زوال هذا اليوم بالذات، بعد الغداء، دون أن نذهب بعيداً، قصدت محلًا يبيع لوازم الخياطة لشراء إبرة من الألومنيوم يكون طولها أربعون سنتيمترًا من أجل قتل بلايستين. وبالضبط، في اللحظة التي كنت أدخل فيها المتجر، بدأت السيدة الزبونة تحكي للسيدة البائعة تفاصيل محنتها مع التهاب البروستاتا المزمن للسيد زوجها: عواء الرجل وسط الليل من جراء

إحساسه بالاحتراق عند التبول، وانخفاض ممارساته الجنسية بسبب الألم الملازم للقذف، وحركات تدليكها لبروستاتا الرجل بسبابتها وبقفاز من اللاتكس، وهي حركات تعلمتها بشكل خاطئ. وعندما لمحت البائعة محياي الأزرق المعتم، وحركاتي في الهواء وأنا أبحث عن مكان أتكئ عليه، وفهمت أن حكاية الزبونة ستطول، سألتني:

- هل تريد شيئًا؟

لكن ما دام قدري يباغتني حتى في الأماكن التي لم أعتد التردد إليها، في تلك اللحظة بالذات أغلقتُ أذنَيَّ براحتيْ يديّ، حتى لا أستمر في سماع قصة تلك السيدة، وانكمشتُ على نفسي، لأنعزل عن كل ذلك، حتى إنني لم أسمع سؤال بائعة الخردوات، وبالكاد رمقتها بزاوية عيني، دون أن أعرف كيف أفسره. بقيت على ذلك الوضع فترة طويلة، ثم اعتدلت -لأنني فكرت في أنني إذا استمريت على ذلك الوضع فقد أصاب بضيق في التنفس وكل دمي سيتجمع في رأسي. ودون أن أهتم بأني سوف أقطع حديث المرأتين، قلت:

- هل يمكن أن تناوليني إبرة خياطة أسطوانية من الألمنيوم، بطول أربعين سنتيمترًا؟

- نبيعها مزدوجة.

- حسنًا، لقد أدخلوا في زوجي إبرة هائلة في رجله اليمنى، على عظم الفخذ. قالت الزبونة.

من النافل القول إني، بعد ذلك، خرجت إلى الشارع، بدون إبرة الألومنيوم. غير أنه، نظرًا لكون سوء حظي كبيرًا جدًا، وغير مفهوم، فالأمر لم ينته هناك، إذ إنني، أثناء هروبي، أحسست بوخزة شديدة على ساقي، بألم رهيب لم يفارقني إلى الآن وأعرف أنه سيلازمني لفترة طويلة، وبإحساس واضح يخترقني بأن شيئًا استقر داخل ساقي، على مستوى عظم الفخذ.

٥

إدواردو بلايستين أرجنتيني، مثلي. يسكن في شقة مشمسة فسيحة في الطابق الخامس، في عمارة مجدَّدَة تضم شقتان في كل طابق، في شارع كلاوديو كويلو، في حي سالامانكا، لكنه يقضي أيامه وسط المدينة حيث يعمل.

في الصيف، يرتدي إدواردو بلايستين قمصان بولو ملونة، وبنطلونات رياضية كاكية من القطن. وفي الشتاء يرتدي دائمًا قمصانًا فاتحة، وبذلة مفصلة على مقاسه، ومعطفًا طويلًا، معطفًا يغطي كل شيء كما يقول هو، وربطة عنق معظم الأيام و، أحيانًا، وشاحًا طويلًا ذا لون مشرق، ملفوفًا حول رقبته عدة لفات وأطرافه مدلاة على جذعه. لا ينفصل أبدًا، تحت أي ظرف من الظروف عن حقيبته المسطحة الصلبة المبطنة بالجلد.

شعرُ السيد بلايستين كثيف، به شيب، يمشطه إلى الخلف، مثل فريدريش الثاني ملك بروسيا، مع بعض الخطوط القاتمة التي ما تزال تحف لحية عارضيه. يبتسم طوال الوقت، وكأنه فخور بشَعره.

عادة يتناول القهوة مرتين في اليوم، وليس قط بعد الساعة ١٤:١٠ بعد الظهر. اليوم الذي تناولها فيه متأخراً كان هو السبت الأخير من شهر سبتمبر الماضي: بدأ يحتسيها في الساعة ٢:٠٤ مساءً، وأتمها وقد بدأت الدقيقة الحادية عشرة بعد الثانية بعد الظهر. في بعض الأيام يلتقي مع أحد ما؛ وفي أيام أخرى، يقرأ الجريدة أو يدوّن ملاحظات وكأنه لا يحتاج إلى أحد أو يرغب في رؤية أي شخص، مثل غريق وصل سعيداً إلى وسط مقهى صاخب.

إدواردو بلايستين يسير دائمًا بسرعة.

إدواردو بلايستين يتحدث الإنجليزية والعبرية. أحيانًا يقرأ جريدة الغارديان وأحياناً صحيفة هآرتس الإسرائيلية. إضافة إلى ذلك، بالطبع، يقرأ البايس، إل موندو، لا ناثيون، وكلارين.

إدواردو بلايستين لديه عشيقة. أما أنا، فلا.

٦

اعتاد إيمانويل كانط، خلال فترات إنجاز أعماله، التحدثَ طويلًا مع مارتن لامبي، الذي كان يصمت وينصت ويومئ بصبر الخادم.

كانا يجتمعان في المكتب في آخر المنازل التي قطن فيها السيد كانط. إذ إن الفيلسوف غيَّر سكنه على مر السنين في مناسبات مختلفة، لأنه كان يجد كونيغسبيرغ مدينة صاخبة: غادر منزله الأول نظرًا للإزعاج الذي تسببه له ضوضاء سفن الموانئ وعربات الشوارع، وغادر الثاني هربًا من صياح ديك أحد جيرانه، وآخر بسبب أناشيد أسرى الكنيسة وتجاهلِ رئيس البلدية طلبَه بإجبارهم على الصمت. في المكتب الصغير في هذا المسكن الأخير، تحت صورة مظلمة لجان جاك روسو، يلتقي الفيلسوف والخادم لبضع ساعات أثناء المحادثات الباردة بعد الأكل في منطقة البلطيق.

كان السيد كانط يتحدث. وكان السيد لامبي ينظر في عينيه اللتين هما على شكل ثمرةٍ مفردة النواة مستطيلةٍ. لكن السيد

كانط بالكاد كان يعيد إليه النظرة، لأنه لا يكاد يرفع عينيه عن مقياس الحرارة، والبارومتر، ومقياس الرطوبة، والساعة، وهي آلات وضعها مصطفة على طاولته.

من بين ما كان يقوله الفيلسوف مثلًا:

- عليك أن تعرف، يا عزيزي لامبي، أنَّ الأرقَ آفةٌ استسلمتُ لها بنفسي منذ ما يقل عن سنة، إذ كثيرًا ما أعاني من نوبات تشنج وإثارات ليلية.

- كنتُ أكاد أسمعك تتحرك قلقًا في غرفتك يا سيدي.

- حسنًا، كان الأمر كذلك لدرجة أنني عددتها نوبات من مرض النقرس، وانتفاخ البطن، والإمساك... وانتهى بي الأمر إلى اللجوء لطلب مساعدة من طبيب، وأنت تعلم أنني لا أحب الأطباء لأنهم يعطفون عليّ ودائمًا يعارضونني. لكنني أحسنتُ هذه المرة، فبهذه الطريقة فقط استطاع الطبيب أن يوضح لي أنه نظرًا لكون صدري غائرًا ومقعرًا، فإنه يترك مساحة صغيرة لحركات القلب والرئتين، وبذلك يحصلُ لديَ استعداد طبيعي لهذا النوع من الأفكار المَرَضية. عليك أن تعلم أيضًا، مع ذلك، أنني، في الواقع، أقنعت نفسي، بواسطة التفكير، أنه على الرغم من ضيق صدري يسود الصفاء والفرح في دماغي، وبذلك تمكنت من الشفاء من الأرق.

كان السيد لامبي يومئ برأسه موافقًا. وكان السيد كانط يمرر جسمه الضيق من متر ونصف حول المكتب المتواضع.

واستمر الفيلسوف قائلًا:

- بالطبع، على الرغم من أن النوم طويلٌ، يا صديقي لامبي، والنوم المتكرر، يعد طريقة سهلة لتجنب المتاعب الكثيرة التي تجلبها لنا اليقظة، ألا يبدو لك غريباً جداً أن يتمنى الواحد منا حياة طويلة ليقضيها في النوم؟

وكان الخادم يجيب أحياناً:

- بالتأكيد يا سيدي.

- الاستيقاظ والعودة إلى النوم يَشُلُّ القوة ويخمدها وينهكها. أما كثرة النوم، فقط من أجل الاستمتاع بالنُّعاس، مثلما يفعل الإسبان في قيلولتهم، فإنها تُقصِّر من العمر. السرير عشٌ لعدد لا يحصى من الأمراض.

أحيانًا، يهز الفيلسوف نفسُه رأسَه مؤكدًا ما يقوله، وموافقًا عليه. ثم يدور أكثر حول الطاولة، وسط المكتب، بمعطفه الرمادي الذي يرتديه حتى داخل المنزل، لتجنب نزلات البرد.

وعند اقتراب نهاية خُطبته، وإذا لم يكن الفيلسوف في الجانب الذي توجد به الساعة، يذكّره الخادم:

- سيدي، لقد حان الوقت.

ثم كان السيد كانط والسيد لامبي يخرجان في نزهتهما المعتادة كل يوم في الخامسة مساء. الأول يحمل عصا في يده، والثاني يحمل مظلة على ذراعه.

٧



لطالما استرشدت، من أجل الاعتناء بجسدي، بنصائح الفيلسوف البروسي الحكيم. بل إنني في البداية، ولا شك أن ذلك يُعزى إلى نزوة من الاحتياط، تتبَّعت ترتيبًا مماثلًا لمراحل حياتي المختلفة. أولًا، عانيت من أرق عنيد استمر لسنوات، ولم أتمكن من التحرر منه إلا بالالتزام بإيماءات الفلسفة العملية للسيد كانط. ثم، بعد أن شُفيت من ذلك الاضطراب، قررت عدم الانغماس في النوم الزائد، النوم من أجل النوم، وخضعت لنظام استراحة صارمة تدوم فقط بضع ساعات قصيرة في اليوم، خاصة بسبب الخوف من الكائنات الحية الدقيقة والفيروسات والأمراض المُعدية التي يمكن أن تنمو وتتآمر وتتخذ لها أوكارًا تحتمي فيها في دفء السرير.

لكن، لقد تركتُ ورائي تلك السنوات السعيدة التي ركَض فيها نَوْمي بالتوازي مع ذلك الذي سرقه السيد كانط من ليالي كونيغسبيرغ. لأن ١٧ يوليو ١٩٩٩ أصابتني، مثل أسوأ عقوبة، مثل إدانة لدودة، لعنة أوندينه. منذ ذلك الحين، بات النوم يعني لي الموت المؤكد.

أظن أنني أعاني من هذا المرض الخِلقي منذ ولادتي، لكن لا بد أنه ازداد سوءًا مع مرور الوقت؛ لأنه في الحقيقة، منذ ذلك التاريخ، لا تأمر أجهزة جهازي العصبي اللا إرادي، عند أي إشارة لنقص الأكسجين في الدم، بالدعوة إلى زيادة التنفس. تتركني أجهزة استقبالي الكيميائية أواجه مصيري كل ليلة، وأنا يتملكني خوف شديد من أن أستسلم للنوم، عن غير قصد، دون أن أربط بي أجهزة التنفس المساعدة التي تصاحب فترات راحتي القليلة.

لعنة أوندينه لا تصيب أكثر من ثلاثمائة شخص في العالم كله، حظي سيئ جدًا. حتى الاستراحة حُرمتُ منها. وأثناء بقية اليوم أجدُني مجبرًا على التجول في الشوارع يطاردني النعاس، وتهاجمني أحلام قصيرة مفاجئة، وأتعب أمام أكثر السلالم سخافة وأمام أي منحدر سهل، أحس بصداع رهيب وبِكُوَيْرات دمي الحمراء ترتفع إلى أعلى.

الفائدة الوحيدة التي سأحصل عليها من هذا الحرمان من النوم، هذه الليلة -هذه الليلة التي بدأ ضوء قمرها يتخافت على المدينة وعلى زوايا شقتي، هذه الليلة التي ستكون ليلتي الأخيرة التي أتعايش فيها مع الأحياء- هي القدرة على النظر إلى الموت وجهًا لوجه عندما سيأتي لينتزعني من جسدي الفاسد.

٨

تحكي الأساطير الجرمانية، أن أوندينه كانت حورية مائية ذات جمال مذهل تسكن المياه العذبة، في البحيرات والوديان والبرك والعيون والآبار والينابيع والجداول والأنهار الصغيرة.

وتُقدمها الحكايات الألمانية -والبروسية- للقرن الثامن عشر، على أنها، بالإضافة إلى كونها مزعجة، خالدة لا تموت. شيء واحد يهدد أبديَّتها: أيُّما حورية وقعت في حب بشر، وأنجبت طفلًا ثمرة لتلك العلاقة، فإن صفة الخلود تنتزع منها لحظة الولادة.

وعلى الرغم من هذا العائق، فقد انتهى الأمر بأوندينه أن فتنت الفارس الرشيق الجريءَ السيرُ لورانس. تزوج السيد لورانس والسيدة أوندينه. وبمجرد إعلان النذور، قال السيد لورانس في مبادرة حب وتقدير: ابتداء من اليوم، كلما استيقظت، وقبل أن آخذ أول نَفَسٍ لي في اليوم، سيكون تفكيري الأول والوحيد من أجلك.

بعد حفل الزفاف، وبعد مرور الشهر الذي يُتناول فيه،

وفق التقاليد الجرمانية، شراب مُعسل مخمر نظرًا لمفعوله الأفروديسي، وبعد عام من الزواج، أنجبتْ أوندينه سليل السيد لورانس. منذ تلك اللحظة، بدأت تفقد جمالها، ولمعان بشرتها، وقوة منحنيات جسدها، وشبق أحشائها. وبحسب تلاشي شكلها، وكأنه يتآكل بفعل تعرية ريحية، دأب السيد لورانس يفقد الاهتمام بالسيدة زوجته.

في ظهيرة أحد أيام صيف خيِّرٍ، كانت السيدة أوندينه تتجول بين المحاصيل، بالقرب من الاسطبلات. وحين اقتربت من نوافذ اسطبل الخيول، سمعت شخير زوجها المألوف لديها. دخلت الحظيرة فرأت السير لورانس يستريح بهدوء على الصدر العاري لامرأة أخرى.

زمجرت السيدة أوندينه وسبابتها منتصبة تشير إلى عينيه:

- ألم تقسم لي بالوفاء في كل أولِ نفس!

- أنا...

- إذن، فليكن. سأسمح لك بالتنفس كلما بقيت مستيقظًا. ولكن إذا حدث أن نمت مرة... فلن تتنفس الهواء وستموت إلى الأبد!

منذ ذلك الحين أصبح السيد لورانس المسكين، مثل روح معذبة، مدانًا بالبقاء مستيقظًا إلى الأبد، والتجوال في الدنيا نعسانَ ومنهكًا لا يستطيع إدخال الهواء إلى فمه...

٩

أنا قاتلٌ محترفٌ أحْوَلُ.

والحوَل، من حيث المبدأ، لا يسهل عملي على الإطلاق. فالرؤية المضاعفة من شأنها أن تَختزِل إلى النصف، لأي محترف، عدَدَ إصاباته لهدفه سواء بسلاح مدمر أو بسلاح ناري قصير المدى. وأنا، نظرًا لسوء حظي الذي يلازمني، فحين أجبرني انحراف عيني على الاختيار بين هدفين متطابقين، انخفضت نسبة نجاحي في جميع الحالات إلى أربعين أو ثلاثين بالمائة.

إنه لأمر محبطٌ أن ترى كيف أن السكين، الذي جعلته ينزلق في يدك بعناية كبيرة وألقيته بدقة شديدة في حركة صامتة، وتكاد تكون رائعة أيضًا، يصطدم بجدار فارغ ويتشتت، بينما هدفُك يتلاشى مثل شبح يرافقه كل الضجيج الأجوف الذي يحدثه السكين المعدني وهو يرقص على الأرض. ويكون الإحراج أكبر عندما يلتفت إليك الهدف الآخر، الذي هو من لحم ودم، وينظر في عينيك المنحرفتين نظرة حيرة أو خوف أو خضوع أو سخط على الوضع.

أي محترف آخر كان سيغير طريقة عمله نحو أسلحة بعيدة المدى، لأن النظر في التلسكوب يمكّنك من إغلاق إحدى العينين دون أن يؤثر ذلك على إدراك العمق. لكن الأسلحة بعيدة المدى تسبب لي التواءات في المفاصل وانخلاع العظام مع تمزق شبه منحرف للرباط المخروطي، وشبه المخروطي، والأخرمي الترقوي السفلي والعلوي.

لذا، فإذا رأيتُ مرة أخرى شروقًا آخر للشمس، وكل شيء يشير إلى أن الأمر سيكون كذلك، لأن الساعة الآن ٧:٤٧ ويبدو أنني بدأت أميز نوعًا من ضوء أدكنَ على ملامح الأسطح و أبراج كنيسة سان سباستيان مارتير؛ على الرغم من أنني لست بتاتًا على ما يرام، أجدني محمومًا شيئًا ما، وأشعر بنوع من الثقل في صدري، وعندما أسعُل أو أبصق أرمي بَلاغِمَ خاثرة ملطخة بالدم، مثل مربى نبتة الكشمش الأحمر؛ كنت أقول، إذا رأيت مرة أخرى شروقًا آخر للشمس، ولدي يوم كامل آخر لتنفيذ التزامي بقتل إدواردو بلايستين، فسأضطر إلى اختيار سلاح يدوي، لتجنب ضحايا عرضيين أو التنبيه لذلك، سأضطر إلى اختيار مِفَكٍّ، أو خيط صيد، أو رأس مظلة، أو صنف معين من السم، ولكن لن أختار قط إبرة حياكة أو مقص خياطة، أو أي شيء يمكن شراؤه من محل يبيع لوازم الخياطة.

١٠

الأحرف الأولى من اسمي هي ي. م. ولدت في مدينة ر. الأرجنتينية، بلدة تنمو محمية بآخر امتداد لنهر بارانا، ذات يوم ربيعي يوافق ١١ نوفمبر ١٩٦٦. لكنني أتيت إلى إسبانيا قبل أن أتم ست سنوات من العمر.

كان أجدادي روسيين وبولنديين. وَالداي أرجنتينيان متواضعان كانا يشتغلان في تحميل الحبوب وتفريغها في ميناء ر. أنا بنفسي كنت أعمل، وأنا مازلت أحبو، صبيًا أُكلَّف بمَهَمَّات في محلات الويسكي المنحطة في المدينة، والتي كانت تنشأ مثل جمرات على أنقاض بيوت دعارة.

أتذكر، من سنواتي التي قضيتها في الأرجنتين، اليوم الذي حملني فيه والدي إلى طبيب الأسنان لأول مرة. كان يوم ٤ أبريل ١٩٧١، وكانت قاعة الانتظار تفوح منها رائحة محلول القِلي المُبيِّض والماء المؤكسج، وتفوح من الممرضة رائحة الماء المؤكسج وغسول الفم، ومن الطبيب رائحة الكحول الإيثيلي ونفَسٌ من اضطراب الجهاز الهضمي، وأبقاني هناك

لا أتحرك على كرسيه، وفمي مفتوح مثل حصان في معرض، طيلة مساء بكامله. ثم وضع لي، وهو ينظر إلى والديَّ، فرملًا يلجم شفتي السفلى وشريطًا ضيقًا جدًا في اللثة الكيراتينية. منذ ذلك اليوم، تملكني الهم من الإحساس بأن لجامي الضعيف قد ينكسر ويتفرق إلى قطع مثل شريط مطاطي، وتتقلص لثتي وتختفي، ويسقط صف أسناني السفلي ويتدحرج على الأرض، فلم أبتسم مرة أخرى.

الأحرف الأولى من اسمي هي ي. م.، رغم أن الجميع ينادونني بالسيد ي. أقطن في شقة صغيرة في النقطة X بمدريد، وهناك لدي ميزان حرارة -سريري وجداري- وبارومتر، ومقياس رطوبة جوية، وساعة وكرونومتر. أنا مزود، أيضًا، بجهاز قياس ضغط الدم وأجهزة تنفس وجهاز ترطيب للجو. وكلها مسكنات غير كافية بتاتًا لمريض ميؤوس من شفائه.

١١

في هذه اللحظة بالتحديد، أتجول بجسدي المنخور بالأمراض وسط المدينة على مرأى من الجميع، وضد قوانين الطبيعة كلها، كأنني أقوم بمعجزة من المعجزات. اليوم يوم أربعاء، ولدي يقين تام بأنني سأموت اليوم. وفي هذه اللحظة بالذات، وبينما هذا التفكر يتبادر إلى ذهني، اضطررت إلى أن أتوقف في منتصف الشارع، وأمسك بالحاجز الذي يفصل الرصيف عن مجرى حركة المرور، لأن قشعريرة غمرت قلبي، ومرة أخرى ضاق التنفس في رئتي. لا أدري، ربما لن أبلغ عشية اليوم بعد كل شيء. يجب أن أستمد قوة من ضعفي، وأن أتسلق قضبان هذا السور المعدني، جارًّا جسدي الأعرج وعديم الفائدة، لأتقدم في شارع ألكالا، حتى أقابل إدواردو بلايستين في النقطة التي تَعوَّد على الظهور فيها في الساعة ٩:٢٣ من صباح كل أربعاء. ثم محاولة قتله، بكل الوسائل، في غضون ساعات قليلة.

هواء جليدي يقطع جلد وجهي وشفتيَّ، وتدفقُ الناس

المتحركين في جميع الاتجاهات يسبب لي الدوار، ولكن رغم كل شيء عليّ أن أتنفس بعمق، وأضغط على بطني باليد اليسرى، وأهدِّئ، بالضغط بأصابعي، الأورام السرطانية في أمعائي الدقيقة، وأن أسعى جاهدًا لإخفاء خوفي، وأدفع جسدي المتقيّح، الذي هو معجزة طبية، لأتبعُ السيد بلايستين حتى مكتب البريد في ممر إيل برادو، إذ من هناك يرسل كل يوم أربعاء خطاباته إلى الخارج، وهناك أقضي عليه باستخدام فتاحة الرسائل التي أحملها في جيبي لهذه المناسبة.

اليوم، يرتدي بلايستين معطفًا مزدوج الصدر بنيًا، ووشاحًا مخمليًّا من الصوف المضفور برتقالي اللون. دخل مكتب البريد وهو يسير، كالعادة، بخفةٍ، وصحةٍ يُحسد عليها. أتبعهُ على بعد أمتار قليلة، وأدخل أيضًا إلى المكتب. هناك عدد كبير من الناس، وحارس بجانب الباب ينظر إليّ بفضول، وربما يتساءل: كيف أستطيع أن أبقى على قيد الحياة؟ أقبض على فتّاحة الرسائل بيدي دون إخراجها من جيبي، لأشعر بالأمان أكثر. نعم، أفضل بكثير. تَوزَّع الناس في طوابير مختلفة، وفجأة، وأنا أولي اهتمامًا لما تراه عيني اليسرى أكثر مما تلاحظه اليمنى، فقدتُ بلايستين.

أقتربُ من سيدة لأسألها هل رأت رجلاً بوشاح برتقالي؟ لكنني في آخر لحظة أغير رأيي وأنتقل إلى طالب شاب، مظهره يبدو أكثر أماناً.

- أستسمحك سيدي -أقول للشاب- هل رأيت سيدًا بوشاح

برتقالي ملفوف حول رقبته يمر من هنا؟

ينظر إليّ الشاب بارتياب، مضطربًا من سؤالي، وربما من مظهري. أحاول أن أبتسم، لكني لا أستطيع. وعدم القدرة على الابتسام شيء لا يُسهّل على الإطلاق، في كثير من الأحيان، الأنشطة المكملة لعملي. أبذل، إذن، جهدًا لأنتزع ابتسامة من شفتيَّ فتصبح تكشيرتي مرعبة أكثر فأكثر. رد الشاب بإدارة ظهره لي وبمحاولة التقدم في طابوره.

أحاول مع شخص آخر مرة أخرى، رجل سمين في منتصف العمر، يرتدي مئزر عمل ملفوف حتى الخصر وقميصًا كُتِبَ عليه: «لم أتناول مخدرات قط ولن أعود لتناولها». سألته:

- أستسمحك، سيدي، هل رأيت سيدًا بوشاح برتقالي ملفوف حول رقبته؟

أظن هذه المرة أن محدثي يجيبني؛ لكنني، وفي صدفة معكوسة جديدة، نِمْتُ في تلك اللحظة بالذات. كانت نومة قصيرة جدًا دامت ثانية واحدة أو ثانيتين على الأكثر، وذلك واحد من الآثار الجانبية التي تركتْها أضرار أونديه على لياليَّ، لكنها كانت كافية لكيلا أسمع الجواب. أتردد بين سؤاله مرة أخرى أو التظاهر بأني سمعته. وفي النهاية، وكما لا يمكنني بالطبع أن أبتسم، لأنني حُرمت أيضًا من هذا المورد الفعال في مثل هذه المواقف، فقد عزمت على المخاطرة وأصريت قائلًا:

- عفوًا، ماذا قلت؟ لم أسمعك، سيدي.

جِدّيًا يخفض الرجل حاجبًا ويرفع الآخر، وهو ما أفسره بأنه عدم ثقة -كيف يمكنه التفكير في أنّ شخصًا في مثل ظروفي لديه وقت للمزاح؟- يفتح فمه ليقول شيئًا، فأعود إلى النوم.

عندما فتحت عيني، بعد ثانية واحدة، لم أعد أذكر ما إن كنت قد طرحت عليه السؤال أم لا. لا أدري هل فكرت في طرحه، هل حلمت بطرحه، أم أنني فعلًا طرحته؟ قلتُ مرة أخرى:

- عفوًا، ماذا قلت؟ لم أسمعك، سيدي.

قال لي الرجل:

- اذهب إلى الجحيم، سيدي.

في تلك اللحظة أرى بلايستين. يوجد هناك على بعد طابورين. أترك الرجل في منتصف العمر صاحب إزار العمل، أتقدم بضع خطوات في هذا الاتجاه، وللتخفي، آخذ ورقة من جهاز مُوَزِّع أرقام الانتظار. لكن بمجرد أن ضغطت على زر «إرسال» على الجهاز، مخاطرًا بحياتي، نِمْتُ.

عندما استيقظتُ لا أتذكر ما إذا كانت القسيمة التي تحمل الرقم سقطت من يدي، نتيجة ارتخاء العضلات بالنوم، أم أنها لم تخرج أصلًا من الآلة. أضغطُ على الزر مرة أخرى. وأعود إلى النوم. أستيقظ، وها أنا هنا وسط مكتب البريد ولا أدري هل الآلة معطلة أم أن الأرقام تسقط على الأرض! ولا يمكن

معرفة ذلك، لأن الناس يرمون أرقامهم كلها على الأرض بعد استعمالها. أضغط على الزر مرة أخرى. في الواقع، لست متأكدًا مما إذا كنت أضغط عليه للمرة الأولى أم أنني فعلت ذلك مرات عديدة. أتوقف لأفكر في الأمر لمدة دقيقة، ثم، بشكل لا يصدق، أستيقظ؛ ثم مرة أخرى لا بد أنني نِمت. وبما أنني لا أستطيع تقدير مدة الأحلام القصيرة جدًا، فإني لا أعرف منذ متى وأنا هنا؟ لكن يوجد بجانبي الآن حارس الأمن.

- أنت هو الشخص الذي استخرج أكبر عدد من الأرقام في يوم واحد. هنيئًا لك، لقد حطمت الرقم القياسي. لقد ربحتهم جميعاً، بما فيهم ذلك الطفل الذي هناك. عن ماذا تبحث سيدي؟ عن جائزة؟

- لا، ليس من الضروري... -أجيبه وأنا أدرس تعابيره بعيني اليمنى، بينما أتحقق باليسرى منزعجًا من كون السيد بلايستين لم يعد حيث تركته- لكن هل يمكن أن تخبرني ما إذا كنتَ قد رأيتَ رجلًا بوشاح برتقالي ملفوف حول رقبته يغادر هذا المكان؟

يساعدني حارس الأمن على الخروج من مكتب البريد. بالكاد تبادلنا بضع كلمات عندما تمكنت، وأنا في الشارع، من أن ألمح بلايستين يعبر الممر في اتجاه شارع ألكالا. هكذا تركتُ المحادثة، وأسرعت الخطو ما استطعت، بكل ما تتحمله رجلايَ المسطّحتان المتراخيتا الأوتار الرابطة بين

عظامهما والألم الثاقب لعظم فخذي، لأنني لن أسمح لنفسي بإضاعتِه الآن، حيث لم يبق لي سوى بضع ساعات من الحياة. لن أسمح لنفسي بإضاعته تحت أي ظرف. وهذا هو السبب الذي جعلني -عندما رأيت السيد بلايستين في الزاوية مع شارع ألكالا ينغمس في مدخل مترو الأنفاق- أنتصر على كل مخاوفي واعتراضاتي، وأتجاهل الغم الذي بدأ يلف حول قصبتي الهوائية مثل يدين تريدان خنقي. ورغم كل ذلك أمرتُ جسدي المحتضر بملاحقته هناك أيضًا في باطن الأرض، في مقدمة ما سيكون عليَّ معرفته في غضون ساعات قليلة.

أتبع بلايستين عبر ممرات المترو، في متاهة العالم السفلي، تحت وطأة المدينة. أتبع بلايستين في أحشاء قطار الخط رقم ٢. أتبع بلايستين حتى على طول ممرات انتقاله إلى الخط رقم ٩، عبر الدهاليز تحت أرضية لمحطة برينسيبي دي بيرغارا التي تفوح منها رائحة الكبريت. لكن، ما أن وجدتني على بعد نصف متر منه، محميًا بالحشد المجهول في العربة، أشعر بدفء رقبته، وأتحقق رأس فتّاحة الرسائل بطرف سبابتي داخل جيبي، حتى وصلنا إلى محطة كونتشا إسبينا، وأطلَّتْ عبر نوافذ القطار صورة للوحة الثلاثية المقلقة «حديقة المباهج الأرضية» لصاحبها بوس، وأنا لا أستطيع، لا أستطيع التحمل أكثر. جسدي يغلبني. الأزمة تتمكن مني. وبعد استعادة وعيي بما يحيط بي، أكتشف نفسي أصرخ شارخًا لمراقبٍ، يقبض عليّ من عنق معطفي، أن الحظ السيئ يلاحقني.

أصرخ بشدة إلى درجة أن رؤيتي أصبحت مظلمة، وعلى المراقب أن يساعدني للخروج من هذا الفضاء الذي هو ملكية لشركة النقل العمومي تحت المدينة.

الأسوأ من ذلك كله أنه، بعد ما حدث، أعتقدُ أن إدواردو بلايستين سيتذكر وجهي لبعض الوقت.

١٢

فوق كل شيء، كان إدغار آلان بو، مثلي، رجلًا يعاني من سوء الحظ. فمنذ أن بدأ يعقل؛ ومنذ عَلِم، وهو بعد طفلٌ، أنه أصبح وريثًا لأمراض والديه الرُّحَّل وإدمانهما على الكحول؛ ومنذ أن شوهد راكبًا في قافلة العربات المهترئة والقذرة لتلك الفرقة من الكوميديين، طارده سوء الحظ في كل تحركاته حول العالم.

فقدَ والديه وهو ما يزال طفلًا صغيرًا. وفقدَ زوجته، التي أحبها بيأس باعتبارها فرصته الوحيدة للقبض على عالم معقول، يوم ٣٠ يناير ١٨٤٧. بعد وفاتها، عانى السيد بو احتضارًا دام شهورًا وانتهى باحتشاء دماغي. ولأن الاحتشاء لم يُنهِ حياته، فقد حاول الكاتب الانتحار في العام الموالي، في الوقت نفسه، وربما لتعزيز جهوده، طلب الزواج على التوالي من السيدة شو والسيدة ويتمان والسيدة ريتشموند، اللواتي رفضنه تِباعًا.

قَتْلُ نفسه بالمنشطات كان يكلفه كل ما لديه من مدخرات، ولم يكن يسمح له بكتابة ولو سطر واحد يمكن أن يضمن له

أي مدخول. لذلك، في النهاية، قرر السيد بو أن يتقدم أيضًا إلى السيدة رويستر العجوز والثرية جداً. حُدّد موعد الزفاف يوم ١٧ أكتوبر ١٨٤٩. قرر السيد بو الإقلاعَ عن الشرب وتناول المخدرات، وقلبَ حياته، بل حلق شعره جيدًا.

في يوم ٢٩ سبتمبر من ذلك العام، استقل السيد بو قطارًا من بالتيمور إلى فيلادلفيا، مرتديًا معطفًا ضيقًا ومتهالكًا، ورأسه الكبيرة البرّاقةُ وجبهَتُه مغطاة بقبعة ملتوية وقد ازداد وزنه بعض الشيء. لكنه بمجرد أن صعد إلى القطار شعر بأنه مُلاحَق. إنهم يلاحظونه. يفحصونه من خلال النوافذ ويتبعونه في ممر القطار، على طول العربات. السيد بو يعرف من يلاحقه: إنه سوء حظه الذي لا يعرف الكلل. هذا ما حاول المراقب إفهامه إياه. لكن المراقب لا يدخل في الأسباب. يمسك به الكاتب المنهوك من طيات صدر بدلته، ويحاول أن يفهمه مرة أخرى. يفعل ذلك بقَدَر سيئ للغاية بحيث إنه، بسبب الجهد، أغمي عليه.

أعاد مراقب القطار السيد بو فاقد الوعي -وكأنه علبة من أشعار قوطية- إلى بالتيمور، حيث كانت ستجرى انتخابات للكونجرس في غضون أيام قليلة فقط. إلى هناك حَمَل القدرُ السيدَ بو المسكينَ، مريضًا مرضًا ورائيًا بالإدمان على الكحول، فاقدًا للوعي وغير مدرك لمساره، إلى مدينة فيها انتخابات في وقت كانت فيه الأحزاب تجمع شياطين الشوارع

الفقراء الظمآنين ليسكروهم ويجعلوهم يصوتون من مدرسة إلى أخرى.

كان إدغار آلان بو هو المواطن الذي صوَّت أكثر في ذلك اليوم من أكتوبر. يمنحه الذين أسروه بعض الجرعات ويقنعونه بالحزب الذي يجب أن يصوت لهُ، ثم يدفعونه إلى مدرسة انتخابية وفي يده ورقة، فيمارس السيد بو حقه في الانتخاب. عندما يخرج لا يتذكر وجوه الذين احتالوا عليه، ولا محادثتهم معه، ولا كونه أدخل ورقة في صندوق انتخابي؛ وفجأة، كما لو أنه استيقظ من حلم، يجد نفسه مرة أخرى وبين أصابعه ورقة صغيرة. في مراكز الاقتراع لا أحد من المراقبين يستطيع التعرف على هذا الناخب المتعدد، لأن وجهه كان يزداد اضطرابًا أكثر فأكثر، وشعره أكثر تخبطًا والدوائر تحت عينيه أكثر ظلامًا، وينقص شبَهُهُ مع أي رجلٍ أقل فأقل.

في نهاية اليوم، عندما لم يبق في المدينة المزيد من الزجاجات للشرب ولا أوراق لممارسة الاقتراع، أُدْخِل السيد بو إلى مستشفى واشنطن كوليدج في بالتيمور. هناك، وعلى الرغم من إرهاقه الشديد، اضطر إلى الجدال بصوت عالٍ عدة مرات مع الدكتور سنودغراس، لأن ذلك الطبيب لم يرد أن يصدق أنه في تلك اللحظات بالذات كان يرى حظه السيئ يغمزه وهو ينعكس على جدران سيارة الإسعاف.

في الثالثة من صباح يوم ٧ أكتوبر ١٨٤٩، عشرة أيام قبل

زفافه، عن عمر يناهز أربعين سنة، ماتت من التقيؤ روح إدغار آلان بو الحساسة والتي أسيء فهمها. قال الطبيب سنودغراس إن السبب كان تسممًا كحوليًا. ومعروف أن السبب كان مرض الزهري، والصرع، واحتشاء عضلات القلب، والسكري، والتسميم بأول أكسيد الكربون، ونقص السكر في الدم، واحتقان الدماغ وداء الكلب الذي نقل له عدواه قط أسود.

١٣

لم أدخل السجن قط بسبب مهنتي.

ذات مرة، كنت أتبع هدفًا إلى أن دخل محطة مترو أنفاق، فاتخذت مكانًا استراتيجيًا خلفه، ومعي معول ثلج في الجيب الأيمن لمعطفي. دخل القطار بشكل مفاجئ إلى الرصيف، ضبطت أعصابي وانتظرت لحظتي. اقتربت أكثر من الضحية عندما تجمّع تيار الناس من أبواب العربة القريبة. ثُم فُتحت الأبواب، فانطلقت مجموعة من محبي فريق إنتر ميلان إلى الرصيف. هبطت موجة المتعصبون بقوة شديدة لدرجة أنها جرتني مع آخرين كثيرين من مستخدمي المترو، وفي ثوانٍ قليلة سُحِقنا على جدران النفق. لم تكن هناك ولو ثغرة نتنفس من خلالها، كدت أشعر بطقطقة عظامي؛ بل، كدت أسمع طقطقة عظامي وهي تُسحق. هناك، وسط تلك الكتلة من اللحم البشري، دون أن أستطيع فعل أي شيء لمنع ذلك، حاصرتُ بظهري امرأةً عجوزاً على الحائط حتى كدت أخنقها. لكن ما قتلها هو معول ثلجي الذي استقر في معدتها.

حكم السيد القاضي بأنه لم تكن هناك نية للقتل العمد، وأن هناك «قوة قاهرة» دفعتني تجاه السيدة. لكنه، عدَّ فعلتي قتلًا طائشًا لأنني أحمل معي، وأنا على متن وسيلة نقل عمومية ودون اتخاذ أي احتياطات من خطورته، سلاحًا أبيضَ يفوق طوله أحد عشر سنتيمترًا انتهى به الأمر إلى أن يكون سببًا في الموت.

لقد قلت إنني لم أدخل السجن قط بسبب مهنتي. يمكنني التباهي بذلك في سيرتي الذاتية. سنوات السجن الثلاث التي حكم عليّ بها القاضي كانت بسبب إنهائي حياة امرأة عجوز بريئة، لم أكن أتتبعها حتى، في محطة مترو كونتشا إسبينا، تحت استنساخ غير متناسق لحديقة المباهج الأرضية للسيد هيرونيموس بوش، البوسكو.

١٤

أنا الآن في متجر مكياج للمحترفين في شارع الحرية، حزينٌ، منهكٌ ومحبطٌ، وقد خارت قواي، أضع منديلًا على فمي لأحمي نفسي من التلوث الفيروسي ولأحتوي نفثاتي المستمرة.

ظُهْرَ هذا اليوم، بعد أحداث المترو، عدت إلى شقتي، وتناولت غداء عبارة عن كريمة شوفان وسبانخ ومربى تفاح غير محلى؛ لا شيء يمنح مقاومة كثيرة لقابض أسناني السفلي الجاذب ولثتي الضيقة الكيراتينية. ثم فحصت ضغطي الدموي فوجدته قد ارتفع بشكل صاروخي إلى مائة واثنين وأربعين ميليمترًا زئبقيًا. ورغم كل شيء، وعلى ظنّي بأنه لم تعد هناك انحناءة أخرى يمكن أن تستمر الإبرة في الانقلاب عليها، ارتديت معطفي، ووشاحي، وقبعتي، وأخذت مظلتي، وجئت إلى هنا، إلى متجر المكياج المحترف.

لافتة الباب تقول إنهم يفتحون في الساعة ١٧:٠٠، لكنني وصلت إلى هنا في الساعة ١٦:٥٨، لأكون داخل المحل

في الساعة الخامسة بالضبط، فكان عليّ أن أشاهد البائعات يدخلن، ويهيئن أشياء مختلفة في المتجر، ولم يفتحنَ حتى ١٧:٠٤. بمجرد أن دخلت طلبت أنفًا مزيفًا، فأحضرت لي شابة ستة نماذج من أنوف بأشكال مختلفة ولألوان جلد مختلفة، كلها مصنوعة من رغوة اللاتكس.

- الحقيقة أنني ليس لدي وقت أضيعه -أقول لـلشابة، حتى تعلم أن هناك ضرورة ملحة تستعجلني- لكنني أخشى أن أعاني من حساسية من مادة اللاتكس.

أجابتني:

- كيف؟ اللاتكس يستخدم في كثير من الأشياء في المستشفيات. لا تقلق، أنت لا تعاني من حساسية من مادة اللاتكس.

- صدقيني، يا آنسة، لدي حساسية من مادة اللاتكس.

- ذلك مستحيل. انظر، انظر إلى هذا الذي له لونك بالضبط.

لم تلاحظ الشابة ذلك، ربما لانشغالها بملاحظة انفلات حدقتي اليمنى، لكني أنا، منذ لحظة، كنت أنظر بعيني اليسرى إلى الأنف الذي هي تريني إياه الآن. وحيث إن قناعاتي بشأن حساسيتي لا يبدو أنها قد أثرت عليها مطلقًا، فقد أصريتُ:

- يُستخلص اللاتكس من شجرة المطاط الاستوائية، وأنا لدي حساسية من الموز والكيوي والأفوكادو واللاتكس. ألا

توجد لديكم أنوف من البوليسترين؟

- حسنًا، في الحقيقة لا أعتقد. تقول الشابة.

أستغرق دقيقة في التفكير، بينما أغتنم الفرصة للسعال قليلًا تحت ضغط منديلي الذي تفوح منه رائحة ماء القَلَى والمطهِّر. الجو حار في المحل، والمكيف المسخن في أقصى درجات قوته، ففكرت للحظة أنني لا أريد أن أموت هناك. ودون أن أزيل المنديل من فمي أقول لها:

- من الأفضل، إذن، أن تحضري لي قطعة من اللحم الاصطناعي حتى أصمم منها الأنوف بنفسي.

تسألني:

- تريد الكريولان؟

- هل تم اختباره سريريًا ضد الحساسية؟

- حسنًا، دعنا نرى... -ترفع البائعة أسطوانة بلاستيكية صغيرة بداخلها عجينة من الطين وتفحصها من جميع الزوايا، وكأن الأمر يتعلق بمشكال يخفي صورًا يتعذر فك شفراتها. مكتوب هنا أنه مضاد للحساسية.

- أخشى، يا آنسة، أن لا يكون هذا كافيًا. يضعون هذا في كل مُنتج يكون أقل تهييجًا. لكني أعاني من التهاب جلدي حساس -أقول، مشيرًا إلى وجهي، وكأن ذلك ليس شيئًا واضحًا بالعين

المجردة. ضربة حساسية مفرطة، في حالتي، يمكن أن تقتلني.

تتوقف الشابة عن الابتسام، وتبحث بعينيها عن زميلة لها في الطرف الآخر من منضدة المحل. تشير إليها بعينها إشارة لا أعرف كيف أفسرها. أنظر إلى إحداهنَّ وإلى الأخرى، لكني لا أفهم ما يحدث. ولأني تعودت على العقبات مذ كنت طفلًا ضعيفًا ذا ركبتين عظميّتين، لم أستسلم فسألتها:

- والضُّلعات الاصطناعية؟ هل لديكم ضُلعات اصطناعية؟

- أجل. من اللاتكس. أجابت الشابة.

صارت البلوى تتحكم في كل خطواتي، ولم تمنحني هدنة ولو قصيرة . أحياناً أتساءل: كيف تتركني أستمر في التنفس، ما الذي يمنعها من أن تسحقني في هذه اللحظة بالذات مرة واحدة وإلى الأبد، مثل حشرة تافهة؟ لكن أرفض الاستسلام، وأضيف:

- إذن، أحضري لي، على الأقل، سائلًا فضيًا لمحاكاة شعر أبيض.

تدير لي الشابة ظهرها دون أن تنبس بكلمة، ثم تبحث في أدراج صغيرة. تستغرق بضع دقائق تملكتني خلالها غفوة صغيرة لم يلاحظها أحد؛ ثم تعود الشابة، تضع الجرة على المنضدة، دون أن تنظر إليها، وتقول:

- هو ذا. مائة ميليلتر. هل تريد شيئًا آخر؟

- نعم.

- عجبًا. تقول.

- هل لديكِ لحى وشوارب اصطناعية؟

- طبعاً، ومن شعر طبيعي. من أي ألوان تريدها؟

- هل يمكنكِ إحضارها كلها؟

تنفخ الفتاة نفَسًا من الهواء من أنفها. أومأتُ برأسي، مؤكدًا أن الجو حار جدًا في المحل. ثم، رافعًا صوتي الضعيف بكل ما تسمح به أحبالي الصوتية، أسأل:

- أي نوع من اللاصق تستخدمون؟ أخشى أن...

تقاطعني:

- اللاصق تضعه أنت بشكل منفصل. ونعم، لدينا لاصق مضاد للحساسية.

لحظة بعد ذلك، كنتُ أقيس خلالها اللحى الاصطناعية. اضطررت إلى فتح وشاحي، أمام إصرار الشابة البائعة، التي هي الآن تساعدني على وضعها على وجهي أمام مرآة. عندما تزيل لي إحداها، حمراء ومجعدة، تخدشني بظفر ببنصرها في ورم في الجانب الأيسر من عنقي، أسفل الغدد تحت فكي السفلي. ولأن الشابة لاحظت أني تراجعت من الألم، نظرت إلى الورم، وتأملته بلفتة ملتوية لا يمكن أن تكون إلا نفورًا.

- لدينا مساحيق لإخفاء ذلك. تقول لي.

حينذاك، ودون أن أنبس ببنت شفة، تقدمت إلى المنضدة وبدأت أجمع أشيائي. أضعها في كيس بلاستيكي كنت أحمله في جيبي واحدًا واحدًا، وأضيف بعض قطع حلوى البلسم التي كانت في سلة صغيرة؛ ثم أطلب منها الحساب، ألفُّ وشاحي وأغادر المحل.

بعد أن خرجت إلى الشارع، وأنا محافظ على فمي مغلقًا وأتنفس من الأنف، مسحت بالمنديل دمعة واحدة خرجت من عيني. أعلم أن هذا النتوء على رقبتي قد يبدو غريبًا ومشوهًا. أعلم أن الشعر الناشئ وصلابته وزوائده الصغيرة لا تناسب ذوق الجميع، و، فقط، لا يمكن أن تكون مفهومة. أعرف ذلك، ولكن، في بعض الأحيان، عدم الفهم هذا يؤثر علي. بالرغم من أنهم لا يعرفون. بالرغم من أنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أن تلك الشعيرات، وصلابتها، وزوائدها الصغيرة، التي لا ترقى إلى ذوق الجميع، كلها ليست زوائد لحمية من بشرتي، بل هي كل ما تبقى من شقيقي التوءم الضامر. عائلتي الوحيدة.

١٥

كان للأخوين غونكور عشيقة. عشيقة واحدة، لهما معا. مثلما يتشاركان الأصدقاء، ويتقاسمان نفس المنزل، ونفس كتاب اليوميات الخاصة الذي يدونان فيه ملاحظاتهما بالتناوب، دون أن يستطيع لا أصدقاؤهما ولا حبيبتهما تمييز من منهما الكاتب.

هكذا كان الأخوان غونكور مجتمعين منذ أن تيتّما من الأب والأم في سن مبكرة. لكن، ما كان يجمع الأخوين أكثر، وفوق كل شيء، هو أنهما يشتكيان من الأمراض نفسها: أمراض إدموند كانت تتركز في بطنه، وأمراض جول في كبده. ومع ذلك، عندما يشعر إدموند دي غونكور بوخز، كان جول دي غونكور يضع يده على بطنه؛ وإذا عانى جول من عطب في كبده، فإن وجه إدموند يصبح، على الفور، أزرق ضاربًا إلى السواد وعيناه صفراوين.

في صباح ١٨ ديسمبر ١٨٦٠ البارد والرطب، توجه الأخوان غونكور بشاربيهما المهيبين إلى مستشفى «الإحسان»

في باريس، بهدف جمع معطيات مفصلة حول فضاء روايتهما الثالثة، **الأخت فيلومين**. عند الفجر، نهض الكاتبان الهزيلان في الدقيقة نفسها من السابعة صباحًا، دونما حاجة إلى أن يُعلم أحدهما الآخر؛ نهضا وفي روح كل منهما التوجس نفسه والخوف يحبطان أعصابهما.

ينتظرهما باسمًا، عند بوابات المبنى الحجري الفسيح الذي تحيط به بعض الأشجار النحيلة المجردة من أوراقها، الدكتور فيلبو. كان الطبيب بمثابة مرشد لهما داخل المستشفى، جعلهما يتجولان في عنابر المرضى المختلفة، بينما هو يفحصهم محاطًا بحاشية من تلامذته، وبمساعدة من راهبات «الإحسان». وكلما السيدان غونكور تقدما في رحلتهما، وكلما تعرفا على المزيد والمزيد من المرضى العليلين أو المحتضرين، شعرا بشيء من الضعف في رجليهما، وتراخ يجعلهما يترددان في خطواتهما ويطلبان السند في كل لحظة. في أقل من ساعة، وبعد عشرات الانشقاقات، والغرز والكمادات والنزيف، بعد سبحة الألسنة الأرجوانية والمنتفخة، وأطراف متعفنة، وعيون جوفاء وجماجم متشققة، تحول ذلك «الإحساس» إلى ألم حاد في عمق رُكَبِهما الأربعة، بالكاد يدعهما يمشيان. قبل أن تنتهي الزيارة، كان لوجهيْ الأخوين نفس اللون الأزرق ونفس الإيماءة المتوترة بالمعاناة، تحت شاربيهما المظلمين السَّبطين، الذي لاحظوه على باقي الوجوه التي رأوها ذلك الصباح غاطسة في وسائدها الشاحبة.

في ذلك اليوم البارد ١٨ من ديسمبر، غادر كل من إدموند وجول دي غونكور مستشفى «الإحسان» في باريس، وأحدهما يتكئ على الآخر، متعانقين ومتثاقلين، يعانيان من كل العلل التي يعاني منها نزلاؤه.

على الأقل، كانا اثنين ويمكنهما تقاسم تلك الأمراض.

١٦

لا يوجد عبء أشقُّ، ولا ثقل أخلاقي لا يطاق تحمله على كتفيك، أكثر من يقينك التام بأنك ولدت وأنت تَقتُل، منذ اللحظة الأولى، من رحم أمك نفسه، منذ ذلك الوقت وأنت تختار بين نفسك وآخر، بين حياتك وحياة شقيقك. وأنت لم تولد بعد، وما تزال مغمورًا في المياه الهادئة للسائل الذي يحيط بالجنين، ها قد قتلت دمك.

يمكنني أن أتكهن حتى باليوم الذي حدث فيه كل شيء: يحتمل أن يكون يوم ١٢ مايو -١٣ على الأكثر- من سنة ١٩٦٦، حينما كنت ما أزال أتجول على أرصفة ميناء ر. داخل رحم أمي هناك. ربما في فجر ذلك اليوم ١٢ أو ١٣ مايو، وسط علب رطبة من الحبوب، وسط أعمال النقل العنيفة في الميناء، اتخذتُ القرار. هناك، وربما بتشجيع من ذلك العنف في الهواء، ارتكبت فعلتي الأنانية، قررت أن أضعَ حداً لحياة أخي، أن أسحقَه بنمو جسدي لكيلا يسرق مني مساحتي، أن أطغى عليه وأقلصه حتى أجعله يكاد يختفي، حتى أحوله إلى مجرد بشرة من جسمي.

لا توجد أكثر من مائة حالة من حالات التوائم الطفيلية المعروفة في العالم. ذاك هو حظي السيئ. إلى هذا الاختيار قادني قدري حتى قبل ولادتي، إلى قَطْع حياة ذلك الذي ربما كنت سأشاركه جميع أمراضي، وربما كان الكائن الوحيد على وجه الأرض الذي حظه أسوأ من حظي: واحدٌ منا -نحن الاثنين- البائس الذي لم ينجُ هناك في الداخل.

ومع ذلك، في بعض الأحيان، لا يسعني إلا أن أعتقد أن أخي التوءم ما يزال حيًا يرزق، مثل كائن ذكي أكثر مما هو مثل حبة على رقبتي. حي، لأنه لحم من لحمي وفيه ينبض دمي؛ ذكي، لأن بنياته البشرية الصغيرة، في نهاية المطاف، أكثر تعقيدًا من بنيات أي مخلوق مثله. وأنا أفكر في أخي كأنه نوع من أُنَيْسان، ليس مثل الذين أبدعهم الدكتور باراسيلسوس أو الدكتور فاوست، بل مثل أولئك الرجال الصغار الذين اعتقد الدكتور هارتسويكر أنه اكتشفهم بواسطة مجهره، المحبوسين داخل رؤوس الحيوانات المنوية. أفكر في أخي كأنه رجل صغير يمكنني مشاركته أفكاري في أي وقت، شخص يصاحبني دائمًا، كتف يمكنني البكاء عليه، أذن مستعدة لسماع أنيني أنا المريض المحتضر.

أحيانًا أخرى، أفكر في أن أخي هو ذلك الأُنَيْسان الذي يقود جسدي، الأُنَيْسان الموجود في قمرة القيادة والمسؤول عن كل آثار الضحايا التي راكمتها حِرفتي.

١٧

أنا في النقطة X من مدريد، في شقتي. تركت على طاولة المدخل مواد المكياج التي أنوي استخدامها حتى لا يتعرف عليّ بلايستين في المرة المقبلة، وإن كنت لا أدري هل ستكون لدي فرصة لاستعمالها أم لا. أجد نفسي جالسًا على كرسيّ ذي الذراعين، بجانب المدفأة، في فمي مقياس حرارة، وأقوم بتحريك مشروب ساخن. أشعر بدغدغة مقلقة في ساقيّ، يمكن أن تصبح حكة أو ألمًا فأتكهن بأني سأعاني من مشاكل في الدورة الدموية من جديد، وعطل في الصمامات الوريدية الظنبوبية التي تساعد الدم على مواصلة طريقه صعودًا إلى القلب. أسهو مع هذه الفكرة، لكنني ألاحظ، في الوقت نفسه، أنني مرتخ جدًا، منهك تمامًا، وإذا سقطتُ فريسة لغفوة نوم على الأريكة فقد يكلفني ذلك حياتي. لذلك غيرت تفكيري. وقررت أن أضع استراتيجية جديدة لقتل بلايستين إذا عشت إلى الغد.

كانت مساحة شقتي الصغيرة عند النقطة X في مدريد ستة

وثلاثين مترًا مربعًا صالحة للسكن عندما استأجرتها. الآن تقلصت هذه المساحة إلى تسعة وعشرين فقط، لأنّ سماكة جدران الغرفة الرئيسية وغرفة النوم ازدادت بما يقرب أربعين سنتمترًا، بسبب خزانات حفظ الملفات التي وزعتها في جميع أنحاء الشقة. أوراقي مرتبة بحرفين ورقم. الحرف الأول الذي يظهر على كل درج يشير إلى موضوع المعلومة: يمكن أن يكون ط. أي «طب»، أو ق. «قانون»، أو ت. «تاريخ». الحرف الثاني من الملفات يشير إلى الحرف الأول من الاسم العائلي للطبيب، أو فقيه القانون، أو المفكر أو الكاتب أو الشخصية التاريخية المعنية. الرقم الذي يلي الحرفين يشير إلى رقم البطاقة في الداخل وترتيبها وفئتها ومؤلفها. أما الوثائق المتعلقة بتقنية مهنتي وفنها فأحتفظ بها في خزانتين معدنيتين محمولتين لحفظ الملفات، مثل حقائب، وراء خلفية غرفة نومي التي هي على شكل خزانة مزيفة. بلا حرف ولا رقم ولا أي شيء يساعد على التعرف عليها.

آخذ قلمًا وورقة، ثم أضع على طاولة الغرفة الرئيسية بطاقات المادة التشريعية التي سأحتاجها في المقاربة الجديدة التي سأتخذها لاغتيال بلايستين. فمن المفيد جدًا والمنصوح به، بالنسبة لشخص في مثل حرفتي، أن يكون على دراية بكيفية اشتغال العدالة؛ نعم، صحيح أنني كنت كذلك من قبل أكثر من الآن، وأنا على يقين بأني أعيش لحظاتي الأخيرة، بل أكثر من ذلك، وأنا أستطيع أن أستشعر، برؤية واضحة ومميزة، الصورة

الظِّلِّيَّة للموت وهو ينقضُّ عليّ بلا رحمة في هذه الليلة غير المقمرة.

لكنَّ الرجل الحذر هو بمثابة رجلين اثنين، ولا أستطيع أن أتوقف عن اعتبار حظي قادرًا حتى على عكس تصميماته من أجل أن يعذبني. ولا يخطر على بالي أي شيء أكثر شقاء من أن أقضي، في حالتي هذه، اليومين الأخيرين، أو الأيام الثلاثة، أو الأربعة على الأكثر من الحياة المهداة مَحبوسًا في زنزانة رطبة في السجن. لذلك سوف أبذل قصارى جهدي للتخطيط بعناية وبتفصيل، من وجهة النظر القانونية، للهجوم الذي يجب أن يقضي غداً على حياة إدواردو بلايستين.

لم ألتحق بالمدرسة قط ولم أتلقَّ أي تدريب، لكن كل ما عليّ معرفته موجودٌ في هذه الشقة الصغيرة.

١٨

٩:٤٧ صباحًا. محاولة القتل غير العمد، بتدخُّل قوة قاهرة.

منذ ساعتين كنت على رصيف مترو الأنفاق في محطة إشبيلية، في اتجاه بينتاس. مرَّ، حتى الآن، ستة وعشرون قطارًا، بمتوسط تقاطر يبلغ خمس دقائق وعشرين ثانية. لكن يجب ألا نثق أبدًا في الإحصائيات. فقد تأخر واحد من القطارات بأكثر من عشْر دقائق، وقد أفسد ذلك معدل التقاطر لكل القطارات الأخرى. ليست الاحصائيات موضع ثقة. حسب قسم المخاطر بجامعة آيوا، في الولايات المتحدة، هناك ٧٠٠,٠٠٠ طبيبًا نشيطًا، ويموت، كل عام، ١٢٠,٠٠٠ شخصًا لأسباب مرتبطة بسوء الرعاية الطبية. هذا ما يعادل ٠،١٧١ حالة وفاة لكل طبيب. من ناحية أخرى، يوجد في الولايات المتحدة ٨٠ مليون مواطن يمتلكون أسلحة نارية، ويموت حوالي ١٥٠٠ شخص، كل عام، لأسباب عرضية متعلقة بتلك الأسلحة النارية نفسها، مما يعطي معدل ٠،٠٠٠٠١٨٨ وفاة عرضية لكل سلاح. ومن ثم، حسب الإحصاءات، علينا أن نفكر في

أنَّ طبيبًا واحدًا أخطر ٩,٠٠٠ مرة من سلاح ناري. ربما كان الاستنتاج مبالغًا فيه.

في الساعتين اللتين حوصرتُ فيهما في النفق المروع لمحطة مترو إشبيلية، وأنا أراقب السكة في اتجاه بينتاس وأتحمل ثقل المدينة عليّ ونفحات الهواء الساخن والأبخرة الميكانيكية، مرَّ من هنا ثمانية وستون شخصاً يرتدون أوشحة، وثلاثة وأربعون شخصًا يسعلون أو يعطسون، تسعة عشرَ يحملون عكاكيزَ، واحد منهم معه، أيضًا، كلب، وثلاثة أشخاص يحملون مظلات، ورجل أجرى عملية فتح القصبة الهوائية وغطى مكانها بكماد. وحيث إنني أشكو من حساسية من ظِهَارة الكلاب فقد بحثت عن حارس أمن لأرى ما إذا كان بإمكانه إخراجه من فضاء النقل العمومي تحت الأرضي، لكنه تحجج بضعف بصر مالكه وبصعوبة تنقله دون مساعدة في مرافق مترو الأنفاق، لكيلا يفعل أي شيء. طلبت منه، على الأقل أن يسأل صاحب الكلب: هل نظّف كلبه بمستحضر غسل موضعي للتخلص من بقايا مسببات الحساسية، من نوع فيتريديرم على سبيل المثال؟ لكنَّ حارس الأمن نظر إلي بتكشيرة غريبة، وكأنني طلبت منه المستحيل، وفي النهاية انصرفَ دون أن يفعل شيئًا على الإطلاق، بل نظر إليَّ عبوسًا حين استدار عند زاوية ممر الخروج. مرت منذ ذلك الوقت ثمانية قطارات. والآن هناك فتاتان صغيرتان على يساري تضحكان عليّ.

قضيتُ هنا مائةً وستًا وعشرين دقيقة أشاهد تدفق الناس على الرصيف عند دخولهم وخروجهم من عربات المترو. كتلة المسافرين تتبع الإرشادات، وإذا كان لدينا ما يكفي من الصبر يمكننا توقع سلوك هذا التكتل البشري. في هذه اللحظة، حساباتي دقيقة للغاية. وفي الدقائق التي تفصلني عن ظهور إدواردو بلايستين، يمكنني أن أزيد من تدقيقها أكثر. ثم سوف لن يكون عليّ سوى الغوص في تيار المسافرين، بطريقة أتوجه فيها إلى بلايستين مثل قوة لا تقاوم، والاضطرار إلى دفعه في السكة قليلًا قبل أن يظهر القطار. على الرغم من أنني، هذه المرة، لن أحمل، بالطبع، أي سلاح أبيض يزيد طوله عن أحد عشر سنتيمترًا قد يوحي بتهور أو خطورة.

تصور الخطة أمرٌ هيّن. في الحقيقة، عليّ فقط أن أنظر في ماضيَ الخاص، وأراجع الظروف التي قادني إليها سوء حظي، وأزيح العناصر التي يدينها القانون. ما تبقى مثابرةٌ وملاحظةٌ ومنهجية. الشيء الوحيد الذي يخيفني الآن، هو أن يُربك انخفاض تدفق مستخدمي وسائل النقل العمومي تحت الأرضي، بعد نهاية ساعات الذروة في هذا الصباح حساباتي، ويجعل تدفقات الناس ناقصة وخاملة. بالنسبة للباقي، تزعجني فقط هاتان الفتاتان اللتان تضحكان عليّ دون أي تغاضٍ. شاربي طويل وذقني رائع منمق بصبغات حمراء على وجهي، كما أنني صممت لنفسي أنفًا لعله أعقف نوعًا ما، ومشطت شعري إلى الخلف. كما أرتدي أيضًا معطفًا من جلد الماعز قمتُ بشد

إزراره حتى الأعلى، وطيتا صدره المصوَّفتان مرفوعتان، وأفترض أنَّ مظهري كذلك يوحي بأنني شبه إله، ولعل ذلك هو ما يجعل الفتاتين ذواتي الزي المدرسي تضحكان.

بعد قطارين، غادرت الفتاتان وظهر السيد بلايستين. هذا أفضل، لأنني أنا لا أقتل من أجل المتعة. أنظر حولي: وفق حساباتي، ما يزال هناك عدد كافٍ من الناس، لذلك تنفست بعمق واستعددت لإتمام القتل أخيرًا. يؤلمني جسمي كله، من الوقوف هنا لفترة طويلة، أو الجلوس على مقعد صلب مثل الأرض؛ مفاصلي مشلولة ويمكن أن أشعر بكليتيَّ كأنهما لكمتان مستقرتان في ظهري. اقترب بلايستين من حافة الرصيف، وأنا أعد الأشخاص والثواني ذهنيًا، ناظرًا إلى المؤقِّت الذي يشير إلى وصول القطار الموالي. لقد حدد للتو الدقيقة الأخيرة.

بعيداً تُسمع طقطقة الآلات وتنتشر عبر السكك. يأتي الصوت من اليمين، أي أنه المترو الذي من جانبنا. تحوَّل الضجيج إلى دويٍّ في لحظات، فصارت تغزو النفق ضوضاء سكاكين تقطع الجدران والهواء. أعدُّ حتى ثلاثة، ثم أغوص في موجة الأشخاص الذين يقتربون من السكك، في اتجاه بلايستين. أقتربُ. أقتربُ. أقتربُ. ثم يتوقف التيار. بلايستين يدير لي ظهره. دفعة واحدة كافية لرميه تحت عجلات القطار لتمزقه. تقدَّم التيار البشري بخجل بضعة سنتمترات، لحسن الحظ لن يكون هناك ضحايا جانبيين. بضعة سنتمترات أخرى.

ثم غيَّر التيار اتجاهه بشكل غير منتظر، أمرُّ بجانب بلايستين، وأبقى على يمينه مثل غبي. أظن لحظة أن بإمكان بلايستين أن يتعرف عليّ على الرغم من تنكري، ويجد نفسه مجرورًا ضدي بقوة لا تقاوم حتى يُلقي بي على السكة. ولأنني أعاني، منذ سنوات، من الدوار أو من متلازمة منيير، فمجرد إحساسي بأن بلايستين يقترب مني ليدفعني من ظهري يخلق طنينًا في أذنيّ يجعلني أفقد توازني. أتأرجح على حافة الرصيف نفسها وأنا ألوّح بذراعي في الهواء مثل أجنحة طاحونة هوائية، إلى أن جرَّني مسافران يسارًا ويمينًا من مرفقيَّ. ضربني واحد منهما خطأ على وجهي، فجعل أنفي الاصطناعي يغرق، وأصبح مقسَّمًا إلى شرائح مثل حبة حمص ضخمة.

ثم أدخلتني القوة القاهرة في العربة.

دخل إدواردو بلايستين ورائي، وها نحن معًا، مرة أخرى، في نفس مقصورة المترو. ضاع كل شيء. لم يبق لي سوى أن أنتظره حتى يحاول الانتقال إلى الخط ٤ في محطة «غويا»، وهناك أرتجل فرضية تذبذب الحشد البشري، وأتمنى أن يدفعني الناس نحو بلايستين بلا هوادة.

أغطّي أنفي بمنديل. وفعلاً، بعد أربع محطات يقوم بلايستين بتغيير الخط في غويا. أتبعه عبر الممرات تحت الأرضية والسلالم الميكانيكية، مع تلك الحالة من الدوار التي لا تزال تجبرني على التمسك بأذرع الناس. وعندما أصل إلى

رصيف الخط ٤ المتجه إلى أرغوييس، ألاحظ بشغف حركات المسافرين، محاولًا معالجة كل شيء، منزعجًا من فكرة أن أمامي فرصة واحدة. عندما يقترب القطار، يتكرر كل شيء. أتبوأ مكانًا وراء بلايستين، يزداد الدوي والصرير. يرتج الحشد لأول مرة، يتخذ شكلًا. هذه المرة أنا أقرب إلى بلايستين والحشد يدفعني نحوه. أقترب أكثر. أزداد اقترابًا. دفعة صغيرة كافية لتجعله يسقط ويموت موتًا محققًا. لكن الحشد لا يتحرك. لقد فقد نبضه. لا أفهم ما الذي يحدث! أنظر حولي وألاحظ معطى جديدًا لم آخذه في الحسبان: جميع المسافرين في جواري تزيد أعمارهم على سبعين عامًا. يقول أحدهم عن يميني:

- هل أنت متأكد من أنه ما كان يجب علينا أن نركب الحافلة؟

- لا أدري، لا أدري... لكن ما دمنا دفعنا ثمن الرحلة... يجيبه آخر.

بدا، للحظة، أن الأول يريد أن يخطو خطوة أخرى، أضع جسدي في حالة توتر، لكنه يفكر في الأمر بشكل أفضل ويقول:

- بالنظر إلى ما قد يكلفنا... مازال بإمكاننا الخروج من هنا وركوب الحافلة.

ما يزال بلايستين يدير لي ظهره، لا يلتفت. أسمع، على يساري، صوتًا ينضم إلى المحادثة:

- كلفنا ستتيمًا بسنتيم...

يومئ الشيخان على يميني، يوافقانه الرأي، ثم يسألني أحدهم:

- لكن، هل كنت قادمًا معنا؟ هل أنت دون أندريس؟

- لا، لا، اسمي سيبريانو، من هنا من هذا الحي، لكننا لا نعرف بعضنا.

- آه يا بني، لأني أنسى كل شيء...

ثم، في لحظة ضعف أشعر فيها بأن جسمي لا يشكل زاوية قائمة مع الأرض، أقبض على ذراع الرجل الذي على يميني، فيسألني:

- وحضرتك؟ هل كنت قادمًا معنا أيها الشاب؟ لا أتذكر وجهك، لكن من يدري...

لا أجيبه. يغمرني الشعور بأن سطح محطة مترو الأنفاق كله مائل ميلًا شديدًا إلى جهة واحدة، وخلفي صوت سيدة تقول:

- لكن لا تفوتوا علينا الرحلة! إننا نتقاضى معاشًا صغيرًا جدًا.

أومأ جميع السادة برؤوسهم دفعة واحدة. لكن عندما بدا أن الشيوخ أخيرًا صمموا على التقدم قليلًا، مستعدين لخطو خطوة أخرى، في الوقت الذي أصبح فيه ضجيج القطار يصم

الآذان وهو يفيض عبر النفق، وبإمكاني أن أحس بظهر إدواردو بلايستين يداعب حافة أنفي الاصطناعي المشوه، كنت قد أدركت أن زخم تيارنا لن يكون قادرًا على رمي أي شخص إلى السكة، وأنه في جميع الأحوال لن يَعدَّ أيٌّ قاضٍ، في هذا البلد ولا غيره، مثل هذه الجماعة قوة قاهرة.

١٩

كان جوناثان سويفت يتعرض، خلال فترات تأليفه أعمالَه، إلى ضجيج يهجم باستمرار على أذنيه، وكذلك إلى نوبات دوار وبرودة كانت تغزو معدته نظرًا لإكثاره من تناول الفاكهة.

وصفَ له طبيبه السريري في مور بارك، في مقاطعة ساري، نظام تمرين يومي من المشي والجري وركوب الخيل والسباحة، وكلما توفرت لديه بعض الدقائق، لصعود السلالم ونزولها. لكن، أعراض مرض الدوار، بدل أن تختفي، ازدادت وتضاعفت.

في ظهيرة يوم رطب من شهر فبراير من عام ١٧٢٠، كان السيد سويفت منهمكًا في كتابة الفصل العاشر من كتابه رحلات غوليفر، مستغلاً ضعف حاسة السمع الذي هاجمه تلك الأيام وجعله في منأى عن كل سهو. وفي غرفة مهملات ببيت من خشب في بقعة نائية في الأراضي الأيرلندية، نوافذها محكمة الإغلاق بمراتيج لتجنب الإحساس بالسقوط في الفراغ، وبباروكته البيضاء المائلة إلى اللون الأشقر الداكن التي

يرتديها حتى داخل البيت لحماية أذنيه، خلق السيد سويفت شخصيات سترولدبروغ، وهي كائنات خالدة تولد من حين إلى آخر في عائلة في مملكة لوغناغ، تتميز ببقعة دائرية حمراء على الجبهة، فوق الحاجب الأيسر، كعلامة أكيدة على أنها لن تموت. بمرور الوقت تتضخم البقعة وتُغيِّر لونها: تكون خضراء في سن الثانية عشرة، وهو لون يظل قائمًا حتى سن الخامسة والعشرين، لتتخذ، حينذاك، لونًا أزرقَ معتمًا، ثم بعد ذلك، في سن الخامسة والأربعين، تصبح سوداء نهائيًا مثل الفحم.

كان السيد سويفت لم يحسم بعد أيّ طبع سيضفيه على السترولدبروغيين، هل يجعلهم حكماء ومستنيرين، أم ربما بائسين وماكرين؟ فإذا بدوار يباغته ويجعله يظن أن رأسه ملتوٍ، وللحظات، جسمَه كلَّه. كانت الغشْيَة قوية بحيث إنه رغم إمساكه رأسه بكلتا يديه وقبضه على المكتب المتواضع، لم يكن يستعيد الشعور بالتوازن، وكان يحس بأن سطح المنزل كله يميل. حاول النهوض عدة مرات، ولكن الغشية كانت تسوء أكثر، فيشعر وكأن المكان بأكمله يندفع نحو الأعلى، ولذلك فهو ينغمس بعنف نحو هاوية مركزه. ثم تناول مخطوطه محاولًا التركيز على شيء آخر غير نوبة الدوار، دقّق بصره محاولاً فهم سطر من السطور، لكن الحروف تشتتت إلى أعلى وفي كل الاتجاهات، وسقط السيد سويفت، سقط بين الشخصيات، حتى اصطدم بربوة مزروعة بالحبوب، حيث

وجد نفسه محاطًا بأربعة من المعمرين السترولدبروغيين. قال أحدهم، عن يمينه:

- كان عليك أن تكون أكثر حذرًا وأنت تسقط.

أجاب السيد سويفت:

- أنا...

- هيا، لا أقول لك إنك أوشكت أن تقتلنا، لأننا لا يمكن أن نموت -أضاف آخر بنبرة اتهام. لكن هل يمكنك أن تتخيل ماذا سيعنيه أن يقضي الواحد بقية الحياة مشلولًا، مسحوقًا بخصر مثل خصرك؟

- أنا...

- أنا، أنا، أنا... ومن تكون أنت؟ إذا أمكن أن نعرف.

- اسمي جوناثان سويفت. قال السيد سويفت ونهض عن الأرض وهو يمد يده إلى الشيوخ الأربعة.

- هل نعرف بعضنا البعض؟ سأل أحدهم.

- لا، لا أظن ذلك. أجاب.

- إذن، فلماذا نتحدث معك؟

- لأني سقطت لتوي وسطكم، وكدت أسحقكم.

- صحيح؟ -قال الأول- لا أذكر ذلك.

- ومن أنت؟ إذا أمكن أن نعرف. سأل آخر.

نظر السيد سويفت حوله، وشاهد الرجال والبقع السوداء مثل الفحم التي على حواجبهم اليسرى الأربعة، ففهم ما كان يحدث: إنه وسط أزمة رهيبة من مرض الدوار الذي يصيبه.

- أخشى أن لا تصدقوني إذا شرحت لكم الأمر. أجاب الكاتب.

- ومن أين أتيت؟ إذا أمكن أن نعرف. سأل آخر.

- من بعيد، صدقني.

- ألا يمكنك أن تعطينا شيئًا كهدية تذكارية؟ -في الحقيقة نطق السترولدبورغي كلمة «slumskudask»، ولكن السيد سويفت لم يجد مشكلة في فهم ما يعنيه ذلك.

- نحن تَتكلف بنا الحكومة -أوضح أحدهم ويبدو أصغر من الآخرين بمائتين أو ثلاثمائة سنة- لكنها لا تخصص لنا شيئًا كثيرًا، بالمناسبة.

- في الحقيقة لا أحمل معي أي شيء، منذ لحظة فقط كنت في غرفة المهملات في بيتي الخشبي.

- وما دمت لا تحمل معك أي شيء، فلماذا نتحدث معك؟ من تكون أنت؟ إذا أمكن أن نعرف. سأل الرجل العجوز وسبابته تشير مستقيمة إلى خديه السخيين.

بعد ذلك، وبدون كلمات أخرى، انقض السترولدبروغيون الأربعة على السيد سويفت، وطفقوا يطاردونه في جميع أنحاء الربوة المزروعة بالحبوب، ويناولونه ركلات مؤلمة على

مؤخرته، تزداد قوة أكثر فأكثر بحيث إن السيد سويفت كان يرتفع أعلى فأعلى وأعلى، ركلة بعد ركلة، فوجد نفسه من جديد على الجانب الآخر من المخطوط، بعد أن رسَم مربع اقتباسات واسعًا جدًا.

أخذ الكاتب نفَسًا عميقًا، حاول أن يسترجع رصانته، ثم غمس ريشته في المحبرة، واستعد لاقتراف انتقامه. هكذا، بالإضافة إلى العيوب التي وجدها فعلًا في السترولدبروغيين، زيادة على أنهم جشعون، مزاجيون، وكثيرو النسيان، انتهى به الأمر إلى أن رسمهم قنوطين وحزينين وعنيدين وسريعي التهيج، ومغترين بأنفسهم، ودجالين، وبلا أسنان ولا أحناك، غير قادرين على الإحساس بالصداقة أو أي عاطفة طبيعية أخرى، ومعوزين، وأمراضهم تتزايد إلى أبد الآبدين.

نُشر هذا الكتاب القمة لجوناثان سويفت، في مطبعة بلندن، في نوفمبر ١٧٢٦، وفيه مليار من مخلوقاته الخالدة محاصرة في صفحات الفصل العاشر طيلة ما تبقى من الخلود.

ومع ذلك، فمنذ هذا التاريخ، ازداد شعور السيد سويفت بالدوار، كما ازداد طنين أذنيه وفقدانه السمع، وجعله خوفه من المرض واستسلامه للأفكار المهووسة متجهمًا، وأصبح عكر المزاج، سريع الغضب، حزينًا؛ وكان ذلك يبعده عن الناس وحتى عن أقرب أصدقائه الحميميين. وبدأ يفقد قواه العقلية حتى أصبح خالياً تمامًا من الذكريات، ومن كل ما يمكن أن تكون له علاقة بسعة الذاكرة.

٢٠

فقد جوناثان سويفت والده قبل ولادته، حين كان ما يزال يتجول في شوارع دبلن ملفوفًا داخل رحم أمه الإنجليزية الطائشة. بمجرد أن تعلّم الحَبْوَ اختطفته مربيته محاولة إنقاذه، فحملته إلى منزل جديه من أمه في وايتهافون، كمبرلاند، إنجلترا. بعد ذلك، عندما بلغ الطفل سن الرابعة من العمر، عادت والدته إلى مسقط رأسها، والتأم شملها مع والديها وابنها. وبمجرد أن فكرت في الأمر قليلًا، عادت إلى التخلص منه، وهذه المرة، وضعت من جديد بحرًا بينهما، إلى الأبد وأعادته إلى إيرلندا ليكون في رعاية شقيق زوجها السابق.

والد إدغار آلان بو، المريض بداء السل والمدمن على الكحول، ترك أسرته عندما كان الشاعر القوطي يبلغ من العمر سنتين اثنتين، إلى أن مات لاحقًا ضحية مرضه، في مكان مجهول. أمه، المريضة هي أيضاً بالسل والتي كانت حاملًا بطفلها الثالث، توفيت قبل أن يبلغ السيد بو أربع سنوات من العمر، ولم يبلغ طوله بعد تسعين سنتمترًا، رغم رأسه الكبير.

وفقد رينيه ديكارت والدَته عندما كان عمره سنة واحدة، وفقدها الدكتور باراسيلسوس عندما كان في السادسة من عمره، والسيد فولتير في السابعة، والسيد موليير في العاشرة، والسيد كانط في الثالثة عشر، وجان جاك روسو عندما كان عمره بضعة أيام فقط.

توفي والد لورد بايرون، محاطًا بعشيقاته العديدات ودائنيه الكُثُر، وابنه في الثالثة من عمره تاركًا للشاعر الرومانسي تركة واحدة عبارة عن قائمة طويلة من الديون وكلفة الجنازة نفسها. صديقته، الكاتبة ماري وولستونكرافت، ورثت بالكاد اسمها عن والدتها قبل وفاتها عندما أكملت هي أحد عشر يومًا، وإن كان إرث ذلك اللقب الأول قد طُمس، فيما بعد، عندما تزوجت من الشاعر الرومانسي بيرسي شيلي.

فقدَ ليون تولستوي والدته، الأميرة ماريا نيكولايفنا فولكونسكايا، وهو لم يكمل بعد عامين من عمره، ومات والده، الكونت نيكولاي إيليتش تولستوي، بسكتة دماغية عندما أتمَّ الروائي الروسي لتوه عشر سنوات.

عندما كان غي دي موباسان في الرابعة من عمره، افترق والده عن والدته، ولم يعرف السيد موباسان أي شخصية أخرى أبوية سوى تلك التي مثلها بالنسبة إليه الكاتب غوستاف فلوبير. عندما أتمَّ نيتشه خمس سنوات، قتل والدُه، الكاهنُ روكين، نفسه بسقوطه عن درج الكنيسة. عندما أوشك كوليريدج

على إتمام تسع سنوات، توفي فجأة والده، النائب الكنائسي أوتيري، وتم إرسال الشاعر الإنجليزي على الفور إلى مدرسة داخلية بمستشفى المسيح في لندن، المشهور بجوه الخانق ونظامه شديد الصرامة. ومعهم، كانت قائمة الأطفال الأيتام أو المتخلَّى عنهم من لدن أحد والديهم تضم السيد دانتي، والسيد إيراسموس والسيد باسكال، وديدرو ودالمبرت وفرانسيس بيكون، وآرثر شوبنهاور، وسورين كيركيغارد، وألبير كامو، وجان بول سارتر وبرتراند راسل. وغاندي. وتشارلز ديكنز وتشارلز بودلير. وجون كيتس وفيكتور هوغو ودوستويفسكي. والسيد أفلاطون والسيد أرسطو.

أنا فقدت والدتي في سن السابعة، بعد أن سحقها مكبّس هوائي في المنطقة الصناعية سان كريستوبال. بعد ذلك بقليل، نسج والدي علاقة جديدة، مع الكحول، يحاول من خلالها أن يجد مخرجًا لحياته التي صارت طريقًا مسدودًا، ولم يكتشف سوى الوجود المادي لكبده، وفي النهاية، وأنا في التاسعة من العمر، اكتشفَ وجهَ الموت الصارخ.

٢١

مساء أحد أيام أبريل ١٩٨٧، بينما كنت جالسًا في شرفة أحد المقاهي بالقرب من القصر الزجاجي في حديقة الريتيرو، بجانب بحيرة اصطناعية هادئة، أتناول مشروبًا ساخنًا وأراجع كتابات مخطوطة، إذا بجسم دائري ذي حواف منحنية قليلا إلى الداخل، لونه أصفر قاتم وقطره حوالي خمسة وعشرين سنتمترًا، يسقط على مائدتي، ويضرب إبريق الشاي الصغير، وكذلك وعاء السكر الذي أحضره النادل وأنا لم ألمسه حتى. فجأة، وقفت بجانبي فتاة شابة، أكثر شبابًا مني في ذلك الوقت، وسألتني ما إذا أمكنني أن أرجع لها ذلك الصحن الطائر. وبما أنني لم أكن أعرف ما هو «الفريسبي»، تأخرتُ بضع ثوانٍ في الإجابة وفي مناولتها الصحن الطائر ذا اللون الأصفر القاتم، بينما فتحتُ فمي وقلت:

- ماذا تريدين؟

تعجبتُ، وتعجبَتْ، كيف نطقت تلك العبارة بلكنة سوفياتية صحيحة، في الوقت الذي كان فيه اتحاد الجمهوريات

الاشتراكية السوفياتية، بقيادة ميخائيل غورباتشوف، لم يبدأ بعد عملية حلّه، وربما بنوع من الميل إلى تنغيم بيلاروسي في مقاطع نهاية الكلمات.

شكّت الفتاة، التي تحدثت إليّ بالإسبانية بطلاقة من قبل، ثم قالت:

- تنك يو (Thank you).

أشارت إشارة طفيفة برأسها، واختفت من حول البحيرة، ومكان القصر الزجاجي ومن حديقة الريتيرو كلها.

منهكًا من المجهود الذي بذلته في مطاردتها، بقبعة مخرمة وبوشاح يغطي وجهي حتى عينيّ، دأبت لكنتي، طوال ذلك اليوم، تتغير من النغمة البيلاروسية إلى أن صارت تتباهى، عند سقوط الليل، بلهجة ليتوانية قوية. ويوم الاثنين الموالي، كان إيقاع عباراتي مثل موسيقى اللغة اللاتفية. إلى أن صار الناس يعتقدون من الأربعاء إلى السبت، أنني مهاجر أوكراني، ومن الأحد إلى الخميس، أنني شاب بولندي يعاني من سوء التغذية، له ملامح عظمية، نتيجة إضرابات اتحاد النقابات البولندية: «حركة تضامن».

هذه الأزمة الأولى لمتلازمة اللكنة الأجنبية تلاها ما يقرب من خمسة عشر عامًا عرفتُ خلالها الإيقاع المكسيكي، والكوبي، والصيني، والمجري، وإيقاع أفريقيا الوسطى، وكذلك الإيقاعات الأكثر غرابة وغير المكتشفة من أركان

كوكب الأرض، وكان ذلك في فترات تخللتها لحظات أزمات ملحَّة وأخرى -ظاهريًا- عادية.

كذلك كان الأمر حتى ظهيرة شهر أغسطس الحار في سنة ٢٠٠١، في الطابق الأرضي من العمارة التي فيها شقتي عند النقطة X في مدريد، قلت لبوابة العمارة، كما علمتُ لاحقًا:

- الشخص الهادئ ماتيو، رابيكا لا بولا، لو كالور.*

في الحقيقة كنت أريد أن أقول لها إنَّ المكيف لا يشتغل. أجابتني، كما علمتُ لاحقًا:

- لم أفهم كلمة واحدة منك يا سيدي.

لكنني تلك اللحظة، سمعت فقط: «اخلع عنك، يا رجل، هذه النظرة الشهمة».

كنت محتارًا بعض الشيء، وما زلت بحاجة إلى معرفة كيف أصلح مشكلة المكيف، إذ أنّ الحرارة مرتفعة جدًا، وكنت متأهبًا للخروج، وأنا دائمًا أتركه مُشَغَّلًا حينما لا أكون في المنزل، لكي أنعشه دون أن أخشى إصابتي بنزلة برد، أردت أن أقول لها: «لم أفهم جيدًا، سيدتي، ماذا عليّ أن أفعل؟». ولكن، على العكس من ذلك، بلهجة ساكسونيا السفلى، من منطقة هارز الجبلية، قلتُ:

---

* في الأصل:

–La quieto persona Mateo ,raábica la pola ,le caloor

- مضغها في كل مكان من قبل، ما تزال غادرة.*

منذ ذلك الدخول الأول، منذ تدهورت متلازمة لكنتي الأجنبية، إبَّان تلك العشية الحارة من أغسطس، -ربما بسبب تأثير الحرارة المفرطة على مناطقي الصدغية الجدارية- وأصبحت نوعًا من انحباس في النطق معقد، اضطرني إلى أن أعيش احتدامات من أنواع مختلفة، دون أن يفيد أي منها حياتي اليومية أو مهنتي.

وإلى اليوم.

* في الأصل:

–Mastícala antes por todos sitios ,la quieta pérfide

٢٢

١٠:٢١ صباحًا. محاولة قتل فاشلة دفاعًا عن النفس.

عندما استيقظت في هذا الصباح الممتع من يوم الجمعة، عندما اكتشفت أنني ما زلت على قيد الحياة تلمسني أشعة هذا الفجر الخجولة، اضطررت لأن أسحب بكل قواي جسدي المتحلل لعلي أتمكن من اقتلاعه من الفراش. تعثرتُ عند قدم السرير مع الأجهزة التي تساعدني على التنفس، أردت أن أقول: «لماذا يلاحقني الحظ السيئ؟» وبدلاً من ذلك قلت: «انتباه، سيدي، السيارة!*». وهكذا اتضح لي الأمر بجلاء: كان عليّ فقط أن آتي وأبحث عن إدواردو بلايستين في ستاربكس في زاوية شارع بيرخينن دي لوس بيليغروس مع شارع ألكالا، حيث يأتي أيام الجمعة، كما أيام الثلاثاء، لتناول قهوته الصباحية، وأتوجه إليه ثم أنتظر حتى أرى أن أحد تعليقاته يعد تهديدًا بالقتل، في تلك اللحظة أضع حداً لحياته بشكل نهائي، بحجة أنني أعتقد أنني أفعل ذلك دفاعًا عن النفس.

* بالفرنسية في الأصل «voiture le» (كذا).

أنا جالس على كرسي مرتفع، بجوار النافذة. رأسي يغطيه قناع من البوليسترين صنعته لهذه المناسبة، وفوقه أرتدي باروكة من شعر طبيعي بلون القش. أبدو أكثر سمكًا ممَّا أنا عليه، أشد قسوة ممَّا أنا عليه، وعلى الرغم من الميزات الصعبة والمشاكسة التي قمت بتصميمها لنفسي، إلا أنني أقل خطورة ممَّا أنا عليه في الواقع.

في هذه اللحظة، رأيت لتوي، من خلال الزجاج، السيد بلايستين يظهر برفقة عشيقته. لم يرافق السيد بلايستين عشيقته قط، وأنا لم ترقني التغييرات قط. يرتدي معطفًا طويلًا بلون رمادي لؤلؤي، ووشاحًا طويلًا ثلاثي الألوان يمتد من طرف إلى آخر ملفوفًا حول عنقه، وفي يده الحقيبة المسطحة الصلبة المبطنة بالجلد التي لا تفارقه أبدًا. عشيقته ترتدي معطفًا ضيقًا من الصوف والقطن يبلغ ركبتيها، عليه مربعات صغيرة سوداء وصفراء، وقبعة سوداء من الصوف المحبوك، وأقراط من كهرمان أسود ساحرة، وحذاء طويلًا قاتمًا. طلبا مشروبيهما في دقائق، وهما الآن يجلسان بجواري على كرسيين مرتفعين.

أتنفس بعمق، أضغط على بطني لتخفيف الألم الذي يأكلني، أضع جسدي في حالة توتر، أقترب منه لأطلب منه أن يقرب مني جريدة المحل، ألمسه على كتفه وأقول له:

- الشيء الأسود الأبيض، espicorrábico.

ينظر إليَّ السيد بلايستين بغرابة، يوضح صوته ثم يسألني:

- نظرة شهمة لطيفة؟

لم يبد لي تعليقه عدوانيًا جدًا، لذلك ليس لدي أي عذر لقتله. ولا يمكنني محاولة استفزازه، لأن القانون حينها قد لا يأخذ في الحسبان حقي في الدفاع عن نفسي. لذلك أصررت، وطلبت منه مرة أخرى صحيفة اليوم:

- الأخبار الهادئة، تحدث أشياء سوداء.

اهتم السيد بلايستين، مرة أخرى، دون أن يفقد ابتسامته:

- ماذا تقول، أيها المريض النفسي؟

تمسكه عشيقته من ذراعه من الخلف، وتسحبه محذرة بصوت خافت:

- كلب ميت، زوده بالأخبار.

قد يُنظر إلى هذا التعليق على أنه تهديد، لكن عشيقة إدواردو بلايستين ليست هي هدفي. لذلك قمت بتغيير استراتيجيتي، وقررت أن أذهب إليها، وأتحدث معها عن كيف تبدو خصلات شعرها خفيفة جدًا عندما تمشي في الشارع وتُرى من الخلف، وعن رائحة شعرها، وعن عينيها الحالمتين، وكيف أنها تترك فمها مواربًا عندما تنظر من خلال النوافذ، لعلي بذلك أثير غيرته.

- عيون متقدة ونظرة حالمة، الشخص الهادئ، ماتيو، مع قمر أنثى. أقول.

تتراجع عشيقة السيد بلايستين قليلًا، وتختبئ وراء مرافقها. لست متأكدًا جدًا ممَّا إذا كان قناعي من البوليستير سيظل سليمًا ويحافظ على مظهر جيد. تحته، لابد أن حرارتي وصلت إلى ٣٧ درجة ونصف بكل سهولة، ولا يجد العرق مكانًا ليخرج منه. أحاول تجفيف وجهي بمنديل، لكن ليس هناك شيء يمكن تجفيفه على سطح جبيني المصنوع من البوليمر الحراري.

- الحلوة الناعمة -أستمر قائلًا لها، وهي ما تزال تنظر في عيني، محمية على الجانب الآخر من السيد بلايستين- دائمًا.

ينهض السيد بلايستين، يعيد شد أزرار معطفه، الذي لم يخلعه بعد، يأخذ الكأسين من الورق المقوى بغطائهما البلاستيكي، والحقيبة الجلدية، ويقدم ذراعه عند المرفق إلى حبيبته، ثم يخرجان من المحل. وقبل المغادرة ودَّعني:

- حقير، آسف*.

وأضافت هي:

- هرٌّ.

وجد العرق على جبيني مخرجًا، يخرج من فتحتي عيني في القناع. الآن، نعم، أجففه بمنديلي، وأدع إبريقَ القهوة الصغيرَ المصنوعَ من الفولاذ المقاوم للصدأ، وعليه شعار ستاربكس، ذا الفوَّهة الحادة، التي كنت أنوي أن أقتل بها بلايستين، يسقط على الرف بجوار النافذة.

* بالإيطالية في الأصل «escusami».

٢٣

ولد رينيه ديكارت في قرية لا هاي، في منطقة تورين، وهي بلدة فرنسية صغيرة نشأت محاطة بآخر امتداد لنهر كروز، ذات يوم ربيعي يوافق ٣١ مارس ١٥٩٦. ورث من والدته، التي فقدها عندما كان عمره سنة واحدة، سعالًا جافًا وجسدًا شاحبًا، بالإضافة إلى ثروة مكنته من العيش في شيء من الرغد الاقتصادي بقية أيام حياته. عندما رأى والده ذلك الطفل الضعيف والهش، اعتقد دائمًا أنه لن يعيش طويلاً.

في ١٠ نوفمبر ١٦١٩، كان السيد ديكارت في الثكنات الشتوية لجيش ماكسيميليان في بافاريا، في مكان بعيد على ضفاف نهر الدانوب. كان يمضي يومه وحيدًا ومحبوسًا في غرفة ذات نوافذ يُحكِم إغلاقها للحماية من البرد، يجلس بجوار مدفأة، ويتناول مشروبًا ساخنًا، مع كل الهدوء اللازم لينغمس بالكامل في أفكاره.

وحيث إنَّ السيد ديكارت اعتاد أن ينام أكثر من عشر ساعات يوميًا، مما يجعل نظرته عكرة وذات مظهر مشاكس،

فقد استهوته الحرارة اللطيفة لتلك المدفأة وجعلته يغطّ في سبات عميق، حلم خلاله ثلاثة أحلام. في الحلم الأول، رأى نفسه في شارع اجتاحته عاصفة قوية منعته من المحافظة على توازنه، وأيضًا بسبب ضعف في ركبته اليمنى، لكن مرافقيه الذين كانوا بجانبه تمكنوا من إمساكه. بعد ذلك، سقط السيد ديكارت على الأرض واستيقظ. ومرة أخرى، أذعن للنار الخفيفة الساخنة، واستسلم للنعاس. ثم استيقظ مرة أخرى على صوت رعد أضاء الغرفة بأكملها، والذي هو، من جديد، جزء من حلم. نام مرة أخرى. وحلم بأنه اكتشف كتابًا على طاولة مكتبه المتواضع. بدأ يتصفحه، فوقعت عيناه على الكلمات: مواصلة مجرى الحياة*، وهي حكمة اتخذها بمثابة مساءلة حول الحياة التي يجب أن يتبعها والتي، من نافلة القول، انتهت بإيقاظه من جديد. وهكذا ظل الفيلسوف الفرنسي بقية يومه في الأراضي الألمانية في حالة ذهول جراء المدفأة. ومع ذلك، وحتى قبل أن يخرج كليًا من سباته، كان السيد ديكارت قد بدأ في تلمس معنى الحلم الأول على أنه تحذيرًا من أخطاء الماضي ومساوئ محاولة الاعتماد على الآخرين، والثاني على أنه نزول روح الحق لامتلاك جسده، والثالث بمثابة علامة على أن جميع كنوز المعرفة الحقيقية ستفتح له قريبًا. عندما انتهى السيد ديكارت من الاستيقاظ، سعل، وبصق بعض البلاغم اللزجة الملطخة بالدم، مثل مربى الكشمش الأحمر، وأومأ برأسه. لقد اتخذ أهم قرار في حياته: وضع الخطة الطموحة

*باللاتينية في الأصل «quid vitae sectabor iter?».

لخلق طريقة لاكتشاف الحقيقة في أي فرع من فروع العلوم.

ومع ذلك، فعلى الرغم من الجلاء الواضح والمختلف الذي كان السيد ديكارت يرى به مستقبله، فإنه مازال غير قادر على تصور مدى القرب الذي سيكون عليه من عدم استكماله. بعد أيام قليلة من تلك التجليات، كان الفيلسوف في مدينة هامبورغ، حيث قرر الركوب عبر نهر الألب في اتجاه فريزيا الشرقية. بمجرد وصوله إلى وجهته، غيَّر رأيه وأراد الانتقال إلى فريزيا الغربية، لأنه يستحيل عليه تحمل روماتيزم عظامه هناك. كان قليل الصبر لدرجة أنه في نفس الليلة استأجر قاربًا آخر واستأجر طاقمًا صغيرًا من البحارة لينقلوه إلى الشرق. كان السيد ديكارت يسافر برفقة خادمه فقط، الذي يتحدث معه بفرنسية دي لا تورين الرائعة، وبينما هما يتحدثان، لم يستطع منع الاستماع ولم يكن في حاجة إلى وقت طويل ليلاحظ أنهما دخلا، بقدميهما، في وكر قتلة محترفين يتآمرون ويخططون تحت غطاء الاختلاف المفترض في اللغة.

وبما أن النخاع الشوكي قد تجمد في عظامه من شدة الذعر، فقد استطاع رينيه ديكارت أن يسمع كيف أن القتلة اعتبروه تاجرًا ثريًا، وكانوا يتداولون حول إمكانية كونه أجنبيًا جاء من مكان بعيد، وأنه لا يعرف أحدًا في البلد، وأنْ لا أحد سيكلفُ نفسَه عناء الاستفسار عنه إذا اختفى، وأنه كان ضعيفًا وهشًا، ويبدو أنه يمكن أن يموت بمجرد النفخ عليه، وأن حرمانه من الحياة سيكون مهمة سهلة للغاية. ومع ذلك، وأمام

دهشة أولئك الذين يحكمون من خلال المظهر، فإن السيد ديكارت لم يستسلم للترهيب. قفز واقفًا على قدمه السليمة، وخاطب أولئك القتلة المحترفين الخرقى الذين لم يجعلوا في حسبانهم إمكانية كون الراكب معهم يتحدث عدة لغات، مخاطبًا إياهم بلغتهم الخاصة، ومستعملًا معجمًا واسعًا من مصطلحاتهم وهددهم بتركهم في أماكنهم إذا هم تجرؤوا على أن يتلفظوا بأدنى إهانة له أو لخادمه الذي ظل صامتًا ومستمعًا متحليًا بصبر الخدام. مشيرًا إليهم بسبابته المنتصبة وبنظرته العكرة ذات المظهر المشاكس، تحدث أيضًا عن إدخالهم في «نصل أوكام» وهو ما لم يفهمه أولئك المناهضون للديكارتية. وبأذهان مرتبكة بسبب كثرة حديثه وأمام معجزة تغييره سجلاته اللغوية، اقتادوهما، في النهاية، بأمان إلى وجهتهما.

٢٤

لا يتجاوز عدد حالات الأشخاص الذين يعانون من متلازمة اللكنة الأجنبية أكثر من عشرين حالة مسجلة في العالم. هذا مبلغ الإزعاج الذي يسببه لي سوء حظي. منذ أن داهمني هذا الاضطراب الغريب، ظُهر ذلك اليوم من أبريل سنة ١٩٨٧، والذي ربما يكون مصدره من آفة عصبية صغيرة على المستوى القشري أو تحت القشري، أجبرتني الأنظمة الحركية المضطربة لإنتاج الكلام لدي، خلال سنوات، على نطق لغتي الأم كما قد يفعل أي أجنبي عنها: أغيِّرُ طول المقاطع، أخون النغمة، أفقدُ القدرة على نطق بعض الأصوات المعينة. ومهما حاولت التحكم في طريقة نطقي، ومهما ألححت على فمي بأن يتكلم كما آمره، فإن الكلام يبقى هو السلوك الحركي الأكثر تعقيدًا في مجموع الحركات البشرية، وهو أعجوبة حقيقية عن التنسيق العصبي العضلي الذي تقتضيه عملية انسجام مائة عضلة من مجموعات مختلفة، تغذيها أعصاب جمجمية مختلفة. أما أنا، فمهما قاومت من أجل فهم ذلك، فقد حُرمت من مثل تلك المعجزة، في عالم يكتشف فيه المستمعون للغة

نفسها، دون أي شفقة، أي خلل ولو ضئيل في اللحن المعتاد والمقبول لدى العموم.

استمرت هذه المصيبة لدى أشخاص قليلين منذ بداية الزمن، ولم تكن هناك فترة في تاريخ البشرية لم يسلم فيها بعض من الرجال أو النساء، حفنة من البائسين المنتشرين على وجه البسيطة، ولم يصبحوا ضحايا لهذه المتلازمة إلى حدود قصوى لا يدركها عقل فانٍ. في ٢٠ أبريل ١٩٤٠، أصيبت سيلجي نيستروم، وهي شابة نرويجية ترعى ابنها بير البالغ من العمر ثلاث سنوات، في جمجمتها بشظية قذيفة أثناء القصف النازي لبلدة نامسوس الصغيرة، في واحدة من آخر مراحل عملية فيزروبونغ. دخلت السيدة نيستروم في غيبوبة، وعندما استيقظت، بدأت لغتها النرويجية تتلون بلكنة ألمانية واضحة من ساكسونيا السفلى، من منطقة هارتس الجبلية. وعلى مدى الأشهر الموالية، ومهما حاولت جاهدة، لم تتمكن السيدة نيستروم من منع هذا التغيّر في لسانها، مما جنى عليها تدريجيًا بسبب شكوك جميع جيرانها. فقدت المكان الذي تشتري منه السكر. توقف خطيبها الأخير، الذي كانت تأمل أن يملأ يومًا ما الفراغ الذي تركه لها والد بير الراحل، عن إهدائها جوارب من النايلون. ازدادت معاناة الشابة النرويجية بسبب المواقف الخاصة التي تعيشها لا كشخص مريض، بل كمتكلمة أجنبية في زمن الحرب، كمتسللة ألمانية، كمُحبة للألمان، كنازية، عدوّ. ذات ليلة في أواخر ربيع ذلك العام، في تلك المدينة

الصغيرة الباردة المعرضة للحرائق، اشتعلت النيران في منزل سيلجي نيستروم الخشبي واحترق كل شيء، وكانت هي وابنها بير محاصرَين في الداخل، والباب الرئيسي مغلق برتاج من الخارج.

خُطط السيد «سوء الحظ» لا يمكن كشفها، ولا يبدو أنها تحتفظ لي بخطط مشجعة أكثر. أنا قد عدلتُ عن الاكتراث بشأن نغمة جُملي ذلك المساء من أغسطس ٢٠٠١، حيث تسببت مناطقي الصدغية الجدارية بكارثة صغيرة، ذلك المساء الذي ظهرت فيه متلازمة لكنتي الأجنبية وتولت حبسة (لفيرنيك) الكلامية السيطرة على مراكز اللغة في دماغي، زد على ذلك أنني بدأت أتحدث بجمل لا نهاية لها، وأدمج كلمات غير ضرورية، وأغير بعضها بأخرى، وأستخدم تعابير عبثية جديدة، إلى درجة أنني لا أصدر فقط مصطلحات غير مفهومة للآخرين عندما أحاول التعبير، بل أتوقف عن فهم كل ما يقال لي كلما طالت المنافذ. أصبح محكومًا عليّ بتحمل أوضاع خاصة، لا أوضاع شخص مريض، بل أوضاع متكلم أجنبي قادم من بلد يسكنه شخص واحد فقط.

٢٥

١٠:٣٧ مساءً. محاولة قتل فاشلة دون سبق إصرار لكون الفاعل في حالة عدم وعي.

أنا مرهق، خارت كل قواي. أعتقد أنني سأموت الليلة. لكن عليّ أن أقضي أولًا على إدواردو بلايستين، فأنا رجل ذو أخلاق كانطية، وقد دفعوا لي مقدمًا. لا يمكنني أن أغادر هذه الدنيا قبل القضاء على هدفي، لذلك يجب أن أستغل هذا الإرهاق، والأحلام الصغيرة المستمرة التي تحدق بي هذا المساء، معرضة حياتي للخطر كل بضع دقائق. عليّ أن أستغل فترات السبات اللا إرادي هذه لقتله في لحظة أكون فيها بلا وعي. إنها خطة يائسة، لكن يجب أن تنجح. ثم، بعد أن أرديه جثة، سأعود إلى المنزل، وأكمل التفاصيل الأخيرة في وصيتي المتواضعة، و، أخيرًا، أرقد في سلام.

أنا الآن منزوٍ على منضدة حانة إيرلندية وسط مدريد. يتراكم الدخان في طبقات تنزلق إلى مستوى الأعين، ولا يمكنني التوقف عن السعال. أنام، أسعل، والسعال يوقظني. أنا

مرهق لأنني قضيت، زوال اليوم، ما يقرب من ساعتين في إنهاء إزالة قناع البوليسترين عن وجهي ورأسي، بسبب خطأ لا بد أنني ارتكبته عندما حضرت الخليط. السيد بلايستين وعشيقته على الطرف الآخر من المنضدة، يشربان جعتين محمرتين، ولا يكفان عن الضحك. لا يمكنهما التعرف عليّ لأنني لم أرتد القناع الذي لبسته هذا الصباح، ولي شارب أسود مستقيم مثل شارب الأخوين غونكور. في الجيب الداخلي لمعطفي، أخفي أيضًا، بالإضافة إلى مسودة وصيتي، ظرفًا صغيرًا آخر به مليجرامان من مادة التيترودوتوكسين، التي حصلت عليها من أحشاء سمكة ينفوخية، وهو ضِعْف الكمية اللازمة لإنهاء حياة رجل. خطتي تكمن في الاقتراب بمداراة من بلايستين وعشيقته، ووضع السم بشكل عمودي في كأسه عندما لا ينتبه، وإسقاطه في جعته تمامًا في اللحظة التي سأنام فيها، حتى أتمكن من التذرع «بفقدان الوعي» أثناء دفاعي المفترض. على أي حال، وبما أن الرجل الحذر الواحد هو بمثابة رجلين اثنين، فقد اخترت مادة التيترودوتوكسين لأنها تسمم الأعصاب، ولكونها مادة متقلبة لا تترك آثارًا يمكن اكتشافها بعد تشريح الجثة.

استخرجت السم من سمكة ينفوخية -أو فوغو- اشتريتها من بائع سمك ياباني في لابابيس، يبيعها بمائة وخمسين يورو للقطعة. يوجد التيترودوتوكسين أساسًا في كبد الأسماك وأعضائها التناسلية. بكمياتها الصغيرة، تحظى هذه المادة بتقدير مستهلكيها لأنها جزء من الأحاسيس الذوقية للفوغو،

وهو طعام شهيٌّ له محبون كثُر في الدولة اليابانية، حيث يموت العشرات من الأشخاص كل سنة بسبب إعداده غير الصحيح في المطبخ. سمكة ينفوخية واحدة، في يد قاتل محترف مثلي، تحوي في أحشائها ما يكفي من السم لقتل ثلاثين شخصًا.

أنا الآن على بعد مترين من السيد بلايستين وعشيقته. أقترب عبر منضدة الحانة كمن لا يرغب في ذلك، أدفع مشروبي شيئاً فشيئاً. لكن هذا يأخذ مني وقتًا طويلًا، لأن نوبة السعال تهاجمني باستمرار، ولا بد أن أسوي شاربي كل مرة دون أن يلاحظ أحد ذلك، وعندما أتوقف للقيام بذلك، أغفو. زد على ذلك، أنَّ أمامي في هذه اللحظة سكرانًا ذا هيئة نبيلة يبدو أن له مكانًا خاصًا به في هذه المنضدة، ولا يظهر أي ميل للتحرك. أجد نفسي مضطرًا لتجاوزه، ولو استطعت الابتسام لفعلت مثل بلايستين، وعندما أرسم نصف دائرة عريضة حوله سأفعل ذلك رافعًا كأسي في يدي، مبتسمًا يمينًا ويسارًا، وكأنني مواظب على الحضور إلى الحانة وسعيد جدًا وأعرف الجميع.

أنا قريب منه جدًا. لدرجة أنني أستطيع سماع محادثة الاثنين الحية، رغم أني لا أفهمها. أنام للحظة فأحلم بأن سم التيترودوتوكسين يسد قنوات الصوديوم في خلايا السيد بلايستين، مسببًا له تخديرًا عصبيًا وشللًا عضليًا، موديًا به إلى الوفاة بالاختناق في فترة زمنية تمتد ما بين عشرين دقيقة إلى ثماني ساعات. ومثل شخص لا يريد ذلك، أخرِجُ الظرف من الجيب الداخلي لمعطفي، وأبدأ في اللعب به بين أصابعي،

وأرفع يدي فوق مستوى ارتفاع الكؤوس. يضحك إدواردو بلايستين بصوت عالٍ. تُكشِّر بوجهها مبدية أن الأمر لا يدعو إلى كل ذلك الضحك، وترمش بعينيها بغنج، وكأنها استطاعت أن تلتقط فراشتين من وسط دخان الحانة. أضع الظرف فوق جعته الحمراء، ودون أن أتمكن من فتحه، أنام. عندما أستيقظ أجد أن الظرف بكامله سقط في كأس بلايستين، رغم أنهما لم يلاحظا بعدُ ذلك. أحاول استعادته، وعند اقترابي أدركت أن فتح الظرف لن يفيد في شيء، لأنني أخطأت إذ ما يوجد الآن في الكأس هو وصيتي. كانت يدي ممدودة في تهديد لاستعادة الورقة، لكن عندما لاحظت خطئي ورأيت ما كانت أصابعي على وشك التقاطه، أصبت بنوبة سعال قوية، فخرج الماء الغازي الذي كنت أشربه من فتحات أنفي، وجعل شاربي الاصطناعي مبللًا وملتويًا وذابلًا. بمجرد أن أتعافى، بعد المجهود الذي يتطلبه السعال بهذه الطريقة، أغفو. وما أن أستيقظ، مثل شخص لا يريد ذلك، حتى أخرج الظرف من الجيب الداخلي لمعطفي، وأمزق إحدى زواياه، ثم ألعب به، وأضعه فوق كأس بلايستين، وأترك المليجرامين من التيترودوتوكسين تقع فيه، وهي أكثر فتكًا بثلاثة آلاف مرة من السيانيد. لكنني نسيت أن أنام. وكان بلايستين وعشيقته ينظران إليّ عندما فعلت ذلك.

في محاولة يائسة، أرفع كأسي من الماء الغازي، وأحاول أن أشرب نخب السيد بلايستين، محاولاً جعله يشرب. يمسك هدفي كأسه، يرفعها، وينظر إليها بحاجب مرفوع وآخر مجعد،

لكنه لا يشرب لأن هناك ظرفًا داخلها. أستمرُّ في نخبي، وأقول:

- شرارات تشيرتيد، على الهر الأسود!

ثم انفتح فم كل من بلايستين وعشيقته في دهشة، وفهمت، حينها، أنهما تعرفا عليّ.

أنا مصاب بمرض عضال وعلى وشك الموت، رِجلاي مسطحتان بسبب انتفاخ الأربطة بين العظام، وواحد منهما كبير ومشوه بسبب متلازمة بروتيوس لدرجة أن طوله يبلغ ضعف طول الآخر. لكن رغم ذلك، فإنني أستغل حالة الارتباك الذي يغمر بلايستين الآن، وعندما بدأ في الركض ورائي، كنت قد عبرت المحل كله تقريبًا، أُبْعدُ الناس بمظلتي ذات الرأس الحاد حتى لا يدهسوني بأرجلهم ولا يتعثر أحد بقدمي اليمنى العملاقة.

خارج الحانة الإيرلندية، وقبل الانعطاف في زاوية الشارع، أنظر إلى الوراء وأرى إدواردو بلايستين في الباب، ينظر في كل الاتجاهات، ويتصل من هاتفه المحمول متحدثًا بانفعال مبالغ فيه.

أنا مرهق، خارت كل قواي. أقسم أنني سأعود في هذه اللحظة إلى بيتي لأرقد في سلام وإلى الأبد، إلى أبد الآبدين، سواء دفعوا لي مقدمًا أم لا.

لكني لا أستطيع. إنَّ لديهما، الآن، وصيتي.

٢٦

توفي رينيه ديكارت في ١١ فبراير ١٦٥٠. وكانت ملكة السويد كريستينا قد استدعته إلى بلاطها في ستوكهولم، ودعته ليكون فيلسوفها الخاص، لأن هدفها كان أن تزيل عن نفسها، بشكل ممنهج، وصمة البربرية. على الرغم من أن المهمة بدت له، في البداية، لطيفة، إلا أن السيد ديكارت، بمجرد أن استقر، لم يرضه الاضطرار إلى بدء الدروس كل يوم في الساعة الخامسة صباحًا، وهو الذي اعتاد على النوم أكثر من عشر ساعات في اليوم، والتأمل، والقراءة في السرير أو بجانب حرارة المدفأة. قد يكون البرد القارس لمنطقة القطب الشمالي، الذي يجمِّد حتى تفكير الرجال، هو الذي وضع حدًا لحياة الفيلسوف الفرنسي الضعيف المِسْقَام بعد أربعة أشهر فقط من وصوله. هناك، في الأراضي الاسكندنافية، توفي رينيه ديكارت، بين القيء ومرض الصفراء، عن عمر ناهز الثالثة والخمسين. قال طبيب البلاط، الدكتور فان وولين، إن السبب التهاب رئوي.

غير أنه، في عام ١٩٨٠، عندما لم يكن أحد يتوقع ذلك،

وجد المؤرخ والطبيب الألماني إيكي بايس رسالة سرية من الدكتور جوان فان وولين، الذي عالج شخصيًا السيد ديكارت خلال الأيام العشرة من احتضاره، وسط مراسلات أحد أسلافه. لم يجد طبيب القرن العشرين في الأعراض التي وصفها طبيب القرن السابع عشر في الرسالة أعراضًا لالتهاب رئوي. حسب النص، دخل الفيلسوف، خلال اليوم الأول والثاني، في سبات عميق. في اليومين التاليين عانى من هيجان كبير وحالة يقظة مستمرة، لم يأكل خلالهما ولم يشرب ولم يقبل أي دواء. في اليومين الخامس والسادس أصيب بحمى ودوخة وفواق وقيء أسود. ثم تلا ذلك إسهال وآفات جلدية والتهاب في الأمعاء؛ أصبح تنفسه غير مستقر، وانتهى بصره الغائم بالشرود. في اليوم التاسع، عدَّه فان وولين ضائعًا، وتركه في غرفته، خوفًا من أن يكون ما يشكو منه، كيفما كان، مرضًا معديًا. هكذا سيواجه الفيلسوف الفرنسي احتضاره بجَلَدٍ وفي وحدة، على الرغم من أننا لا نستطيع إثبات ذلك، ليرى، مع حلول اليوم العاشر، أخيرًا، وجه الموت القاسي. بعد ثلاثمائة وثلاثين عامًا، واعتمادًا على الرسالة، توصَّل الدكتور بايس، مع فريق من خبراء علم الأمراض، إلى استنتاج غير عادي مفاده أن رينيه ديكارت، الغريب، الأجنبي، الكاثوليكي من بين البروتستانتيين الذي أصبح في وقت قصير الشخص المفضل لدى الملكة، قد مات، في الحقيقة، بسبب التسمم بالزرنيخ. وكريستينا السويدية، ربما لمواصلة سعيها وراء سمعة طيبة لبلاطها الهمجي، أمرت طبيبها بإخفاء الحقيقة.

وعلى العكس من ذلك، مات باروخ سبينوزا، أعظم العقلانيين في كل العصور إلى جانب السيد ديكارت، في سريره، في ٢١ فبراير ١٦٧٧، عن عمر ناهز أربعة وأربعين عامًا. الدكتور ل. م. -هذا كل ما هو مسجل من اسمه- الذي وصل في نفس اليوم إلى منزل الفيلسوف قادمًا من أمستردام، قال إنه مات ميتة طبيعية.

لكن، أن يموت مفكر عاش حياة زاهدة مثل السيد سبينوزا -هذا المفكر، باستثناء القليل من الماندريك والأفيون الذي كان يتناوله، لم يكن يشرب حتى البونتشي الهولندي، والذي شوهد صباح يوم الأحد ذاك حيًا، سليمًا، بل يُظهر علامات تدل على شهية جيدة، على الرغم من الضعف والوهن الذي توحي به بشرته- ميتة طبيعية عن أربع وأربعين سنة، بعد زيارة غير متوقعة من طبيب، فهذا أمر، على الأقل، مزعج. ويجب أن نضيف إلى كل هذا سلسلة من الحقائق المثبتة، مثل كون السيد سبينوزا بقي فعلًا تلك الظهيرة من يوم الأحد، على انفراد مع الدكتور ل. م. في غرفته، وأن خادمه تفاجأ بعد ساعات بأن الفيلسوف مات حوالي الساعة الثالثة صباحًا ولم يحضر موته سوى ذلك الدجال الذي عاد على الفور إلى أمستردام، في قارب ليلي، دون أن يعير كبير اهتمام للميت، وتاركًا وراءه الغيابَ البليغ لدوقية ذهبية، ومبلغًا غير محدد من القطع النقدية الفضية، ومقبض سكين من نفس المعدن.

ولتكن هذه الحقائق بمثابة دليل على أنه عندما يعزم قاتل، متمرس في فن السموم -سواء كان محترفًا أم لا، ويترك أثرًا للأحرف الأولى من اسمه أو لا يترك- على وضع حد لحياة رجل، فإنه سينجح في ذلك إن عاجلًا أم آجلًا.

٢٧

أنا واحد من الأشخاص المائتين المصابين بمتلازمة بروتيوس، المسجلين في العالم. أجدني، من جديد، بين هذه الأقلية غير المتكافئة من التعيسين. يتضح لدي، كل يوم، أنه من الأفضل عدم التوقف للتفكير في التصاميم المظلمة للصدف، أو محاولة كشف هذه الخطة التي يستحيل اختراقها والتي بسببها أجدني دائمًا في مركز كل المجموعات المعذبة، وكأني تلك النقطة المستحيلة والكارثية التي تتقاطع فيها جميعها.

دخلت متجرًا يبيع معدات رياضات المغامرة في شارع غويا. الساعة الآن ٨:١٧ مساءً، وأجد نفسي حزينًا منهكًا ومتألمًا من يومي الطويل، الذي أوشك على تجاوز حدود قوتي، ممسكًا بمنديل فوق فمي، أسعل عصارة صفراوية قاتمة دون توقف، مغمومًا بفكرة عدم القدرة على العودة إلى المنزل. في مسودة وصيتي يوجد عنواني واسمي الشخصي والعائلي. لذا، فحتى لو أردت، لن يمكن لي العودة إلى شقتي عند النقطة X في مدريد لقضاء أيامي الأخيرة، مع العلم أنه، بعد كل شيء،

لن أتمكن حتى من أن أرقد في سلام، وأنه في أي لحظة يمكن أن تقتحم منزلي بعنف أجهزة وقوات أمن الدولة.

وبما أنني لا أستطيع العودة إلى بيتي، ولا بد لي من محاولة استعادة الوصية بكل الوسائل هذه الليلة، فقد أزلت شاربي المزيف، واشتريت لتوي قناعًا داكنًا، لحفظ هويتي، ومِكبًّا من خيط الصيد، لقتل بلايستين. تحدث معي البائع وفهمت كلامه، لذلك أعتقد أن فترة الحبسة الكلامية قد بدأت تزول. في هذه اللحظة، أخرج الشاب، من تحت منضدة المحل، صندوقًا به أحذية خاصة للمشي في الجبال، وبدا أنه سيبدأ في سرد صفاتها وخصائصها الاستثنائية؛ لكنه، بدلًا من ذلك، نظر إلى قدمي اليمنى، وخامره شك فأخفى الصندوق، واستمر في الحديث من حيث تركه.

متلازمة بروتيوس مرضٌ تدريجي يظهر ويتطور عند الأطفال الذين ولدوا دون أي تشوه واضح، ومصدره إعادة تركيب خلوي في الجنين، ثم ينتهي بتكوين ثلاثة أنواع من الخلايا: الخلايا الطبيعية، الخلايا قليلة النمو، والخلايا فائضة النمو. ربما وقع هذا الحادث في جسدي عندما امتص جسدي جسدَ أخي، أو لعله عقاب على ذلك.

الثابت أن متلازمة بروتيوس تسبب نموًا غير طبيعي للجلد والعظام والعضلات والأنسجة الدُّهنية والأوعية الدموية واللمفاوية. ومع نمونا، نحن المصابين بهذا الاضطراب،

تظهر علينا الأورام وتتجلى التشوهات، وتكون أكثر شيوعًا في الجمجمة، في أحد الأطراف أو في بعضها، وفي باطن القدمين. الأكيد أن أشهر حالات الإصابة بمتلازمة بروتيوس هي حالة الراحل جوزيف ميريك، الرجل الفيل، الذي كان رأسه الكبير ملغومًا بالكتل وبالنتوءات، وأدت تشوهاته الجلدية وتحت الجلدية إلى ظهور لون رمادي على سطح جلده كله.

هكذا، ولمرة واحدة على الأقل، لم أكن من بين أسوأ المُقصِّرين في مجموعة التعيسين، وأمام القدر الشديد الذي أمات جسد السيد ميريك ووجهه، أُقدّر أن نصف أورامي فقط تجد سببها في هذه المتلازمة، وقدمي اليمنى فقط، قدمي اليمنى التي كثيرًا ما أثارت انتباه البائع في متجر معدات رياضات المغامرة، هي التي تعاني من آثار الضخامة. ومع ذلك، فأنا لا أحبذ الحديث على عجل أو الاحتفال بالنصر قبل تحقيقه، لأن هذه الحالة تتضمّن خطر الموت المبكر من تجلط الدم أو الانصمام الخثاري الرئوي، الناتج عن التشوهات في الأوعية الدموية واللمفاوية، ووزن العظام نفسه ومن الأنسجة الإضافية الذي يحمل في حد ذاته خطرًا مميتًا. وبالفعل، يقولون إن ذلك هو سبب موت جوزيف ميريك، أي أنه مات جراء وزن رأسه الضخم والثقيل، الذي انتهى بالتغلب على صمود رقبته، وجعلها تستسلم إلى الوراء إلى أن انكسرت مثل غصن جاف وهش.



٢٨

لو كان لديَّ أخ، بالإضافة إلى هذا الذي أحمله حول رقبتي، لكان هو جوزيف كاري ميريك، الرجل الفيل، الذي كان محظوظًا بأن عرف الشهرة في حياته بسبب التشوهات الفظيعة التي عانى منها مذ كان عمره ثمانية عشر شهرًا.

فقد السيد ميريك والدته التي مرضت بالتهاب القصبات الهوائية عندما كان في سنِّ الحادية عشرة. مات أخواه ويليام وماريون إليزا بسبب الحمى القرمزية وهما بالكاد يتعلمان الحبْو. واكتفى والده، الذي لم يكن يحبه قط كابن له، بأن حصل له على رخصة بائع متجول، وأجبره على الطواف في شوارع ليستر متقلدًا عبء مظهره المرعب، وبيع أشياء عادية مما تحتاجه الأسر. بعد فترة وجيزة، تزوج والد السيد ميريك زواجًا ثانيًا من أرملة لديها طفلان، لم يقبلاه لا هو ولا مرضه. فبالإضافة إلى مضايقته وإهانته وإجباره على العمل من أجل المساهمة في إعالة الأسرة، واصفين إياه بالكسول الذي يستغل حالته لكيلا يفعل أي شيء، كانا يأخذان طبق طعامه بمجرد أن

يبدأ بتذوقه عقابًا له على مساهمته القليلة في مصروف البيت. في ذلك الوقت، كان السيد ميريك يعاني من تشوه خطير في وركه وانحناءً واضحا يجعلان من الصعب عليه الانتصاب وقوفًا، وكان فكه مشوهًا ونما له ورم كبير بالضبط فوق فمه، مما يجعل كلامه يكاد يكون تقريبًا غير مفهوم. وأثناء طوافه في شوارع ليستر، يتزاحم حوله الأطفال والكبار لتوبيخه أو إهانته. استمر على ذلك الحال لسنوات، حتى شجبت، عام ١٨٧٩، نقابة الباعة المتجولين السيد ميريك بسبب الصورة السيئة التي يقدمها عمله لقطاع التجار ومنعوه من تجديد رخصته.

كان لجوزيف ميريك رأس ضخم مشوه محيطه ٣٦ سنتيمترا، وورم لحمي كبير على الجانب العلوي بحجم كوب، وسلسلة من الارتفاعات، والنتوءات الجلدية، والشامات على الجانب الآخر. كانت ذراعه اليمنى وكلتا ساقيه ملتوياتٍ، ويشكو من طول وتضخم أصابع يده اليمنى التي يعادل حجمها وشكلها تقريبًا قائمة الفيل الأمامية، بمحيط يبلغ ٣٠ سنتيمتراً عند المعصم و١٢ سنتيمتراً في واحد من الأصابع. من جهة أخرى، لم تكن الذراع واليد الأخرى أكبر من ذراع ويد فتاة في العاشرة من العمر، رغم أنهما متناسبتان جيدًا. عليها عدد كبير من العقد الثؤلولية والأورام الحليمية، تشبه القرنبيط وتنتشر في جميع أنحاء جلده وتحت فروة رأسه وفي الجانب الأيمن من وجهه وظهره ومؤخرته وأطرافه. من فكه العلوي ترتفع كتلة عظم بارزة وتخلق مظهر خرطوم فريد. وبعد أن

نبذته نقابة الباعة المتجولين لقبحه، قرر السيد ميريك الخضوع لعملية مؤلمة لإزالة الزائدة اللحمية التي على شكل خرطوم فيل والتي تنمو وسط وجهه، والتي، زيادة على جبهته المنتفخة ولونه الرمادي الرصاصي، كانت وراء لقبه الشهير. ومع ذلك، فرغم أنهم تمكنوا بعد العملية الجراحية من أن يبتروا منه ما لا يقل عن نصف كيلوغرام من الأنسجة الزائدة، متيحين له من جديد القدرة على تناول الطعام والكلام بطريقة طبيعية نوعًا ما، إلا أن الخيار الوحيد الذي تبقى للسيد ميريك، منذ ذلك الحين، لكسب لقمة عيشه، هو أن يعرض نفسه بمثابة مخلوق يغري بالمشاهدة في مختلف قوافل المعارض في البلاد، ومن ثم أن يبدأ رحلته الحزينة عبر أراضي ومدن إنجلترا.

تحت مظهره المرعب، خلف قضبان السيرك، معروضًا على المنصات أو في أكواخ الاستعراض القصديرية المتداعية والقذرة، كان السيد ميريك دائمًا رجلًا نبيلًا ذا تربية لا يتوقعها أحد من أي رجل من الطبقة الدنيا في ذلك الوقت. كان يتمتع بخيال خارق، وبحساسية رائعة، وبمعجم واسع، يُعبّر بطريقة مثقفة، وكان يتقن حتى القراءة والكتابة بأسلوب جيد وسلامة لغوية. روح حساسة ومعذبة، محبوسة في جسد كابوس. روح، رغم أنها تُظهر ندبة في مكان كان فيه خرطوم، إلا أنها لم تفقد قط براءتها من تأثير تشوهها، إذ اعتقد دائمًا أن كل شيء بدأ في اليوم الذي كاد فيه فيلٌ أن يسحق والدته، اليوم الذي دفعتْها فيه تحت تلك القوائم القوة الهائلة لذلك الحشد

الذي حضر موكب الحيوانات في الشوارع الرئيسية في ليستر. إن خوف المرأة عندما وجدت نفسها تحت الأطراف المملسة لذلك الحيوان الذي ينتمي إلى فصيلة الشتنيات، وهو لا يزال مستريحًا داخل رحمها، هو الذي يفسر، حسب جوزيف ميريك، أسباب هذه المتلازمة الخلقية لديه.

٢٩

تحكي الأساطير اليونانية، أن بروتيوس، كان متعدد الأشكال، إلهًا للبحار مستبصرًا، نبيًا شيخًا قادرًا على النظر في أعماق المحيطات، راعيًا لقطعان فقمات بوسيدون. كان يسكن في جزيرة فارو الرملية، في المنطقة المتاخمة لآخر امتداد لنهر النيل.

تزوَّدَ بروتيوس بقوة خلقية تمكنه من التنبؤ بالمستقبل. ورغم أنه كان شيخًا طيبًا، كان أيضًا ذَا شخصية متقلبة وسريعَ الغضب، وقادرًا على اتخاذ أي شكل آخر غير شكله لتجنب الاضطرار إلى القيام بأدنى توقع للمستقبل. كان السيد بروتيوس يخرج، كل مساء، من الماء وينام في ظل الصخور على الساحل، محاطًا بوحوش أعماق البحار، وكل من أراد إجباره على التنبؤ بالمستقبل فعليه أن يمسك به في لحظة استراحته تلك، وإلا اضطر إلى مطاردته من خلال سلسلة تحولاته الكاملة.

ذات مرة، تقطعت السبل بمينلاوس في جزيرة فارو

أثناء رحلة عودته من حرب طروادة، فربط علاقة حميمة مع ابنة السيد بروتيوس غير الأنيس، وعلم منها بقدرات والدها التكهنية. أخبرته الشابة أن مربي نحل أتى مؤخرًا إلى الجزيرة وكان قد فقد كل نحله، وتعقب والدها بلا استراحة ليلًا ونهارًا، دون أن يكترث بالمرات العديدة التي غير فيها صفته، حتى تمكن من القبض عليه والإمساك به بين ذراعيه. يبدو أن السيد بروتيوس استسلم للأمر في النهاية، فنصح آسره بتقديم اثني عشر حيوانًا قربانًا للآلهة، وتَرْكِ الجثث في مكان الذبيحة، والعودة بعد ثلاثة أيام. عندما عاد النحّال إلى مكان الذبح، وجد في إحدى الجثث سربًا من النحل، فأعاده إلى المنحل ولم يمرض نحله بعد ذلك.

بمجرد أن علم السيد مينلاوس بتلك القصة، وضع خطة: سوف يجبر السيد بروتيوس على أن يكشف له اسم الإله الذي لا شك أنه أساء إليه عن غير قصد، وأن يوضح له كيف يمكنه أن يتصالح معه لكي يستطيع أن يعود إلى منزله. انتظر أن يخرج الرجل العجوز من البحر، في الظهيرة، لأخذ قيلولته بين مجموعة فقماته ووحوش البحر، لمهاجمته. لكن السيد بروتيوس، الذي بحكم سنه لم يعد ينام جيدًا، لمحه قادمًا بطرف عينه، فتحول إلى أسد مفتول العضلات. ظنًّا منه بأن الوحش لن يقتله، طارد السيد مينلاوس الحيوان في غابة من النباتات المتسلقة تتوّج الشاطئ، ولاحظ كيف أن شكله تغير من جديد، هذه المرة تحول إلى ثعبان. زحف الثعبان تحت

شجيرات العليق وفضلات الأوراق والجذور، ثم تحول إلى نمر، ثم إلى يُسروع، ثم خنزير، بل حتى إلى ماء وإلى شجرة. لم يَتُه السيد مينلاوس -ولو لحظة- بل تبعه عبر سلسلة تحولاته بأكملها، مميزًا أي قدر من مياه البركة هو الرجل العجوز، أو أي شجرة من بين جميع الأشجار. في النهاية، تم القبض على بروتيوس، متعدد الأشكال، المنهك بسبب الجهد، أثناء عملية تحوله ذاتها، في لحظة اتخذ فيها جبهة شثنية، وظهرًا مقوسًا لزاحفة، وذراعًا يمنى لأخطبوط، بينما لم تكن ساقه اليسرى سوى قائمة جراد أفريقي. حبس السيد مينلاوس ذلك الرجل الفيل، نتاج العديد من التحولات، بين يديه وطالبه بتقديم إجابات شافية عن جميع أسئلته. فأجابه بروتيوس، رجل البحار الصادق، بصدق على جميع استفساراته، مضيفًا له أيضًا أخبارًا تفيد بأن شقيقه أجامِمْنون قد قُتل في طريق عودته إلى منزله، وأن السيد أياكس الأصغر قد غرق ومات، وأن السيد عوليس تقطعت به السبل في جزيرة كاليبسو.

٣٠

٢٣:٤٦ ليلًا. محاولة قتل فاشلة نظرًا لوجود ردَّة فعل.

أنا مختبئ خلف باب مكتب منزل إدواردو بلايستين، الذي يدفعه نحوي في هذه الأثناء، ضاغطًا بقوة على قدمي اليمنى المتألمة المتورمة على الحائط. يتكلم بلايستين بصوت عالٍ مع عشيقته، الموجودة في غرفة أخرى من المنزل، وهو يمسك بمقبض الباب ويدفع الباب السعيد في اتجاهي. لا أستطيع حتى تخفيف ألمي بالصراخ، ولا التحرك، لمنعه من الانتباه إلى أنني مندس هناك.

وصل السيد بلايستين وعشيقته للتو من مسرح ألكاثار، حيث افتتح البيت السيفاردي الإسرائيلي برنامجه الثقافي للموسم الجديد. دخلت المنزل بعد الصعود أولًا إلى السطح المشترك للمبنى، الذي يقع على سطح شقتَيْ الطابق الخامس، وهما في ملكية كل من بلايستين وأخته. ثم انزلقت إلى شرفة داخلية في منزل هدفي، عن طريق فتح نافذة لم تكن محكمة الإغلاق وفتحتُ الباب من الداخل. في القفزة الأخيرة من

حاجز الشرفة إلى الأرض، خرجت قدمي اليمنى العملاقة من مكانها. بعد ذلك، عندما حاولت إغلاق الباب وتركه كما كان، ونظرًا لاستعجالي، أمسكت بها بين الباب وإطاره، ورغم أني أعتقد أن المفاصل عادت إلى مكانها، فقد شعرت بوخز رهيب يخترقها من طرف إلى آخر، حتى أصبحت منتفخة وبضة مثل باذنجانة ضخمة. والآن بعد أن سحقها لي السيد بلايستين مثل ثمرة ناضجة مع الحائط، أشعر أن الألم لا يمكن أن يكون أكبر مما هو عليه، وكدت أخلع قناعي، لأصرخ في وجهه بأنني هنا بكل ما بوسع رئتي الضعيفتين، نعم، بأنني جئت لأقتله، بأنني أستسلم، أستسلم بصفة نهائية، ولا يمكنني تحمل المزيد، وأن هذا هو خط الصيد، فليفعل به ما يريد، وأنني سأذهب لأموت في شقتي الصغيرة التي مساحتها تسعة وعشرون مترًا مربعًا مستغلة في النقطة X في مدريد.

غير أنني تمكنت من كبح جماح نفسي، لأنني أفكر في فترات قصيرة، وعندما يسأل السيد بلايستين عشيقته إذا كانت تظن أن نظاراته التي يقرأ بها موجودة على المكتب، أعتقد أنها ستكون استغرقت خمس ثوانٍ فقط، للإجابة. وعندما سألها السيد بلايستين عما إذا كان قد تركها في الحمام، أعتقد أنها لم تستغرق في الإجابة أكثر من خمس ثوانٍ أخرى. وعندما سألها السيد بلايستين، وهو ما يزال يمسك بالمقبض ويضغط بالباب على قدمي، هل أحبَّت عرض تلك الليلة، أعتقد أنها ستكون استغرقت في الإجابة خمسَ أو عشْر أو خمس عشْرة

ثانية فقط. أخيرًا، عندما أطلق السيد بلايستين الباب، توجَّه إلى مكتبه الفاخر، ومن خلال الفجوة الضيقة أراه من جانبه في رداء منزلي مخملي أرجواني يبحث وسط الأوراق، أحس بدموع ساخنة تنهمر على سطح خديَّ، على الرغم من أن إيماءات وجهي تظل، كما هو الحال دائمًا، ثابتة تمامًا.

يخرج السيد بلايستين من المكتب ويغلق الباب ويتركني وحيدًا بالتأكيد وسط الغرفة. ولأنني محترف، فقد لاحظت أن فوق كرسي المكتب توجد حقيبةُ هدفي المسطحة والصلبة المكسوة بالجلد. أثناء انتظاري حتى يخلد للنوم هو وعشيقته، أقترب من الحقيبة، ودون أن أخلع قفازيَّ أضعها على سطح الطاولة. تنبعث من المكتب رائحة النظافة والخشب النبيل. الستائر من الأورجانزا الحريري الأرجواني والرمادي، وكل اللوحات التي تزين الجدران محاطة بإطار معدني رقيق رمادي. الكتب مرتبة على رف من اللوح الجصي مصمم تصميمًا اسكندنافيًا ومدمج في الجدار على يساري، يقف على طول عمود من الخشب القاتم غير المصقول. على المكتب مجموعة مختارة من الأقلام من نوع مونت بلانك وكارتييه ووترمان ومونتيغرابا مصطفة بدقة بجوار ورق الكتابة، وقد حرصت على عدم تغيير ترتيبها عند وضع الحقيبة في المساحة الصغيرة الخالية. عندما فحصتها، وجدت أنَّ لها قفل أمان مثل قفل الخزائن الحديدية. لكني لست بحاجة إلى معرفة تركيبته السرية، لأن السيد بلايستين مبتدئ، وقد تركه مفتوحًا. فصلت

بين وجهيها ودرست الأوراق التي في أحشائه، كلها تقريبًا باللغة العبرية. ولأنني غير متمكن من هذه اللغة، فقد أخرجت كاميرا رقمية صغيرة من جيب معطفي والتقطت صورًا لكل وثيقة. أثناء التنقيب في جيوب الحقيبة، وجدتُ كيساً بلاستيكياً شفافاً بداخله ظرف وصيتي. استنتجت أن السيد بلايستين كان ينوي أخذه إلى الشرطة لفحص بصمات الأصابع عليه، لأنه وضعه في الحقيبة دون فتحه. ومن ثم، فإنهم ما يزالون لا يعرفون لا عنواني ولا اسمي الشخصي أو العائلي.

عندما انتهيت من تفتيش الحقيبة والتقاط الصور، بدأ إدواردو بلايستين وعشيقته يَئِنَّان. هذا، من حيث المبدأ، سيؤخر عملي، لأنه سيبقيهما مستيقظين لفترة أطول. لكنني، أستغل تلك الضوضاء للتنقل في المنزل. تنهداتهما تتبع خطواتي، وبإمكان من لديه ما يكفي من الصبر، أن يتنبأ بموعد حدوث النوبة الموالية. أستغل واحدة منها أولًا لفتح باب المكتب. ثم، في الممر الرئيسي، أخطو كل خطوة بحذر: السيد بلايستين، بصفته مالك الشقة، يتميز بمعرفته للأصوات أفضل مني، زد على ذلك أن أي حركة في غير محلها يمكن أن تجعل صوت عظامي يُسمع. أتقدم ببطء، لأن عليَّ وضع قدمي العملاقة المكسرة بعناية، ولأنه في بعض الأحيان، ودون سابق إنذار، يتوقف أنينهما. مثلما يحصل في هذه اللحظة التي عليَّ أن أتوقف فيها توقفاً غريباً في منتصف خطوة.

أثناء اقترابي المتريث، كنت أدرس منزل بلايستين. الممر

واسع وذو سقف عالٍ، والأرضية صلبة من خشب الجوز تتخلله سجادات شرقية ضيقة. أرضية الغرف تعلو أرضية الممر بمقدار خمسة عشر سنتيمترًا، مشكلة بذلك درجة صغيرة عند عتبة كل غرفة؛ ماعدا الصالون، حيث الأرضية أعمق بمقدار ثلاثين سنتيمتراً عن الممر، ولدخوله يجب النزول بدرجتين. أترك ورائي المطبخ، قبالة المكتب، وحمام أول وغرفة ضيوف، على هذا الجانب الأيمن من الممر. كنت أضع في كل واحد من هذه الأماكن، ميكروفونات للاستماع، تحت الطاولات أو تحت أغطية المصابيح. الشيء الوحيد الموجود على الجانب الأيسر من الممر، على الحدود مع المطبخ، هو الصالون، وله أبعاد أكبر بكثير من مساحة شقتي كلها. عندما دخلت لوضع الميكروفون، لاحظت بأن نصف الغرفة تستخدم بمثابة مكان للأكل، وأن ثلاث درجات طويلة تربط هذا الجزء من المنزل بالمطبخ؛ خزانة ذات أرفف مربعة تقسم الغرفة إلى فضاءين؛ على الجانب الآخر من الخزانة توجد أريكة ضخمة عاجية اللون وعلى شكل L وتلفزيون بلازما مقاس خمس وستين بوصةً معلقٌ على الحائط. بعد الصالون، على الجانب الأيمن من الممر، هناك غرفة تخزين وحمام ثان، وعلى اليسار، بعد منعطف صغير في الممر، تختبئ غرفة النوم الرئيسية. أقف على الجانب الآخر من هذا الباب الأخير وأنتظر، حتى الساعة ٤٣:٠، حيث هدأت، أخيرًا، أنّاتها الطويلة ونخراته.

أخيرًا تشجعت وفتحت باب غرفة النوم. أنا الآن مضطر

للتقدم بشكل أبطأ من ذي قبل. فالغرفة في ظلام دامس، وأسمع نفَسين متساويين. أرتدي معطفًا ووشاحًا وقفازين، أشعر بحرارة رطبة وبرائحة جنس. لا يخطر على بالي شيء أخطر على الصحة من تبادل السوائل، واللعاب، والعرق، والإفرازات المهبلية، والسائل المنوي والدم الذي ينطوي عليه كل اتصال حميمي بين شخصين، والذي يمكن أن يسبب ما يقارب ثلاثين نوعًا من العدوى، بما في ذلك البكتيريا والفيروسات والفطريات وحتى الطفيليات مثل قراد الجرب أو قمل العانة. أخرجت كرة خيط الصيد من جيب معطفي، حتى لا أفكر في داء فقدان المناعة المكتسبة، وبدأت أفك جزءًا من الخيط شيئًا فشيئًا وألفُّه في يدي الأخرى. أمشي ببطء شديد. إذا لم يخذلني حسابي الذهني، فالساعة تراوح ١:٢٠ صباحًا عند وصولي بجانب السرير. ألتقط أنفاسي، آخذ وقتي الكافي، وأميِّز نفسًا أقوى من الآخر على هذا الجانب من السرير، فأتخيل أنه بلايستين. أخيرًا، يمكنني، في هذه اللحظة، أن أضع حدًا لحياته. أن أنحّيه نهائيًا. لولا أنني منذ ١:٠٦ أعاني من تشنج احترافي، يكمن في انقباض عضلات سبابتي وكأنني أضغط على زناد.

أفهم أنه في مثل هذه الحالة سيكون من الصعب عليَّ للغاية خنق السيد بلايستين بمهارة كافية حتى لا أوقظ عشيقته. وفي الوقت نفسه، أدركت أنه لو كنت أحمل معي مسدسًا لأمكنني قتله، وإذا ما تم القبض عليّ، سأتمكن من ادعاء القتل دون

نية فعل جريمة نظرًا لردة فعل انعكاسية. إنها خطة مرتجلة بالطبع، ولكن بعد كل شيء لقد أتيْت حتى هذا المكان بدون أي استراتيجية، مدفوعًا بالحاجة الماسة لاستعادة وصيتي، و بمرافعةٍ مهما كانت سيئة فهي أفضل من لا شيء. الحاصل أنني لا أحمل معي أي مسدس، لذلك بدأت أفتش في أدراج منضدة بلايستين لعله يخبِّىء مسدسًا في أحدها. في الدرج الثالث، بجانب علبتين من العازل الطبي، يوجد مسدس. إنه سلاح خفيف، ذو مؤخرة ناعمة، ربما من مسدسات التصميم. أقربه من رأس إدواردو بلايستين، دون أن أضع بعدُ سبابتي على الزناد، لأنه لا يتوقف عن الرشق في الهواء بتشنجاته العضلية المستمرة. أضع فوهة المسدس في المكان الذي أظن أنه الصدغ الأيمن لهدفي، أضع سبابتي على الزناد. أحس بتشنج عضلي وأطلق النار.

لكن لم يكن هناك طرق، ولا انفجار، ولا رصاصة، لأن الزناد مصنوع من المطاط. أضع المسدس في أنفي وأشمه فأكتشف أن فيه رائحة اللاتكس. أتلمس فوهة المسدس باليد الأخرى، المحمية بالقفاز من أي رد فعل من الحساسية، فأتحقق من أنها على شكل حشفة. أرفع السلاح بشكل غريزي إلى أنفي، أحكه دون رغبة، وإذا برطوبة لزجة في طرفه. فأرمي الآلة بقوة بعيدًا عني قدر الإمكان. الصوت الناعم الذي أحدثه سقوط المسدس الوهمي أيقظ بلايستين.

السيد بلايستين الآن جالس على حافة السرير، مستيقظ،

سأل من هناك، وبقي ساكنًا، تقريبًا في نفس الخط معي، وقدمه اليسرى بالضبط فوق قدمي اليمنى المريضة المنتفخة. أبقى ما استطعت أكثر ثباتًا منه، دون أن أتنفس حتى، أرى شيئًا مثل نجوم صغيرة تتكسر في سواد الغرفة.

- هل من أحد هناك؟ يسأل بلايستين مرة أخرى.

- ما الذي حصل يا عزيزي؟ تتحرك هي على السرير.

- سمعت صوتاً في الغرفة. هناك. أتخيل أن بلايستين يشير في الظلام، لكن لا أحد منهما يستطيع أن يرى أين.

- أشعل الضوء إذن.

- لم أرغب في إيقاظكِ.

- لقد أيقظتني الآن. هل تظن أنني سأتمكن من النوم هكذا؟ اذهب وقم بتشغيله وتحقق من أن كل شيء على ما يرام.

يتحرك السيد بلايستين في الظلام. أستطيع أن أحس، من أنفاسه فوق قناعي، أنه يحني رأسه. أفهم أنه بمجرد أن يشعل الضوء سأفقد اختفائي. ثم شغّله.

- اعذراني من فضلكما. أقولُ.

صاح السيد بلايستين بعويل شديد. صاحت عشيقته بعويل حاد. بما أنني لم أعد أرى ضرورة لمواصلة تحمل الألم أكثر، تشجعت لأطلب:

- عذرًا، حقيقة، ولكن أرجو أن ترفع قدمكَ اليسرى.

نظر السيد بلايستين، في حيرة من أمره، إلى أسفل، وعندما رأى أنه يطأ قدمي اليمنى الضخمة، قفز في رعب إلى وسط السرير، وجمع ساقيه وشبكهما بين ذراعيه. صاحت هي بعويل حاد من جديد، وهي تغطي فمها، لسبب ما، بكلتا يديها. تحت ذراعيها العاريتين، لاحظت ارتفاع ثديين عاريين، لذلك غطيت عيني بيد واحدة، وصرت أنظر بعيدًا.

- آسف، آسف، آسف. أكرر وأنا أحمرّ تحت قناعي.

دون أن أنظر، أدرك أنْ لا أحد منهما يتحرك من السرير، ولا يتبادلان ولو كلمة واحدة. مما استنتجت منه أنهما يعتقدان أنني مسلح وأنني سأبقيهما هناك. أستغلُّ هذا الموقف: (وجهي مقلوب وعيناي ما زالتا مغطاتين، وأتجنب النظر إليها) للخروج من الغرفة متعثرًا.

بعد ذلك، في الممر، أسرعت خطوي ما استطعت. وصلت إلى الباب الأمامي للمنزل، وتمكنت من فتحه بيدين مرتعشتين، وعندما صفقته من الخارج، استطعت أن أتنبأ بأن لا أحد منهما تحرك من السرير.

٣١

كتب جوزيف كاري ميريك، الرجل الفيل، أخي في المصاعب والمحن، قصيدة بتعاون مع الشاعر والقس البروتستانتي إسحاق واتس. ما زال المعمدانيون يغنونها، إلى اليوم، بمثابة جزء من ترانيمهم الدينية. الأبيات التي هي من نسج السيد ميريك تقول كالتالي:

صحيح أن خِلقتي نوعًا ما غريبة،

لكن لومي عليها لوم للرب؛

لو بوسعي خلق نفسي من جديد،

لجعلت نفسي في شكل أنتَ تُحبه.

٣٢

في مثل هذه الأوقات، عندما يصبح قلبي الحساس عضلة قادرة على امتصاص موجات غير مفهومة من الألم، تكون الأشياء، التي تشعرني أنني في مأمن من هجمات الوحدة، قليلة جدًا. أن يزداد السيد بايرون، ذات يوم شتوي يوافق ٢٢ يناير ١٧٨٨، وبالتحديد في مدينة يحميها الامتداد الأخير لنهر التايمز، مثلما يحمي مدينتي الامتدادُ الأخير لنهر بارانا، أمر يخفف عني الشعور بالوحدة. أن يكون السيد بايرون، مثل العديد من الأرواح الحساسة الأخرى، مثل العديد من الأرواح الأخرى التي يربطها، بعيدًا عن الزمن والدم، نفس القدر، قد فقد والده وهو ابن ثلاث سنوات، وأنه لم يرث منه سوى الديون كما أنه لم يرِث شيئًا من والدته سوى مزاج عاطفي شنيع، كل ذلك يهوِّن عليّ الشعور باليتم. لكن، هناك حيوات تجري متوازية أكثر مما يمكن أن يتصوره المرء، والشاعر الرومانسي ولد أيضًا بتشوه واضح في قدمه اليمنى، التي تبدو واسعة وقصيرة جدًا، جزؤها الأمامي منحنٍ إلى الداخل وكعب أخيلها دائمًا متوتر.

يعود أصل الرِّجل الحنفاء للورد بايرون إلى عيب خِلْقي معروفٍ، يُسمى «حنف القدم»، يصيب واحدًا من كل ألف مولود جديد. وعلى الرغم من أنه كان مرضاً شائعاً أكثر من ذلك الذي تسبَّب في قدمي العملاقة، فإن ذلك لم يثن والده، (قبل وفاته، عندما رأى الطفل أعرج ومتثاقلًا)، عن أن يتكلف بنشر اقتناعه بأنه لن يمشي أبدًا.

رغم عدم إيمان والده الراحل بإمكانياته، ورغم حذاء تقويم العظام المرهق الذي كان عليه أن ينتعله طوال طفولته، فقد تعلم السيد بايرون الصغير الجري قبل المشي، وكان لا يُفوِّت فرصة التباهي أمام الآخرين بقدرته على التقدم أسرع منهم. ومع مر السنين، نجح السيد بايرون الشاب في دمج طريقة مشيه الشاذة ضمن سلوكه وعاداته، مجهدًا نفسه في مشية غريبة الأطوار ومعقدة كانت تجعل منه، إلى جانب جبهته اللامعة وذقنه العضلي، نمطًا مميزًا. لكنه لم يكن يحقق دائمًا نجاحات أمام كل الشدائد، فقد ظل المرض يطارده طوال حياته، وكان دائم الشكوى من البرد والألم في عظامه.

في ١٧ يونيو ١٨١٦، كان السيد بايرون في فيلا ديوداتي، وهي قصر فاخر من ممتلكاته على ضفاف بحيرة جنيف المهيبة، غير بعيد عن جنيف. في بيت الأشراف ذاك، كان يبيت الطبيب الشاب بوليدوري، الذي كان يرافقه منذ فترة قريبة، خاصة بعد أن ازدادت آلامه ونوبات الاكتئاب لديه، هو وبعض الضيوف الآخرين، من بينهم الشاعر بيرسي شيلي،

وزوجته ماري ولستونكرافت شيلي، وأختها غير الشقيقة، جين كليرموند، التي كان بايرون ينام معها. اضطر الزوار، في تلك الليلة المظلمة والهادئة، إلى البقاء في القصر بسبب العاصفة التي، في الخارج، كانت تهم بتقسيم السماء إلى قسمين. اقترح اللورد بايرون، الذي كان منهمكًا في قراءة قصص أشباح جرمانية، لعبة على الجميع: على كل واحد منهم أن يكتب قصة رعب ترقى إلى تلك الليلة الكئيبة.

قبِل جميع الضيوف التحدي، وهناك بدأ بعضهم يروي للآخرين قصص الخوف التي سمعها، وهم مجتمعون حول حرارة نار المدفأة الحجرية الكبيرة التي تشوه وجوههم. أما السيد بايرون والسيد شيلي فقد انزوى كل واحد منهما في زاوية وتفرغا فورًا لكتابة أعمالهما، ومن يدري لعلهما اتخذا ذلك مبارزة شخصية بينهما.

في تلك الليلة، التي كان البرق يضيء فيها أكبرَ بحيرةٍ في أوروبا الغربية وكأنها سطح قمر لا متناهٍ، صعد اثنان فقط من رواد المطعم إلى غرفتيهما دون أن يحكيا أو يقرآ أي قصة: الدكتور بوليدوري والسيدة شيلي، الشهيرة سابقًا باسم ماري ولستونكرافت. الأول، ربما لأنه يخاف من السخرية العلنية المستمرة التي يُعَرِّضُه لها السيد بايرون، الذي كان يكره الأطباء، والذي اكتشف علاجًا جيدًا لأمراضه في مرافقته ممثل زملائه في المهنة والاستعاضة عنه كلما رغب في ذلك. الثانية، ما تزال تفكر في حكاية محتملة، دون أن تتوصل بعد إلى أي

فكرة أو صورة من شأنها أن تكون بذرتها الأولى.

بعد بضع ساعات، والعاصفة، في الخارج، ما زالت مستمرة في تحريك الغابة والمياه الرمادية للبحيرة، كان جميع الضيوف، تحت سقف بيت الأشراف هذا، ينامون في أسِرَّتِهم. الجميع باستثناء السيد بايرون، الذي كان يتجول قلقًا عبر الممرات الواسعة للقصر، يجر قدمه اليمنى على الأرضية الرخامية البيضاء، والتي يُضيئُها البرق عبر النوافذ من حين لآخر. لم يمض وقت طويل منذ أن حملت منه جين كليرموند، الأخت غير الشقيقة للسيدة شيلي، رغم أن عمرها بالكاد خمسة عشر عامًا، وهو الآن لا يستطيع إيجاد طريقة للتخفيف من اضطرابها. كان يتقدم ببطء شديد، ويطابق أصوات حركاته مع زمجرات الرعد حتى لا يوقظ أحدا، يمر عبر الطوابق والممرات المختلفة للمنزل، إلى أن توقف أخيرًا على الجانب الآخر من باب شيلي. كانت ماري هي المرأة الأخرى الوحيدة التي تنام تحت ذلك السقف.

صرخت السماء مرة أخرى، فدخل السيد بايرون غرفة النوم. أخذ وقته ليعبر الأمتار التي تفصله عن السرير. وعلى حافة السرير جثا على ركبتيه أمام الجسد الأول الذي شعر به يتنفس في الظلام. حينذاك، أيقظ انفجار برقٍ مزَّق سماء الغابة السيدةَ شيلي، فتمكنت من رؤية السيد بايرون ينحني على زوجها مثل حيوان مفترس على فريسته. تلاشى الوهج، وسُمِع في الظلام عواء قوي لشخص ما وصرير بابٍ يُغلق.

في صباح اليوم الموالي، اجتمع الكل حول مائدة الإفطار، قالت السيدة شيلي:

- حلمت الليلة الماضية...

نظر إليها بعض الندماء بفضول. نسج السيد بايرون نكتة حول المسرحية الأخيرة التي حاول الدكتور بوليدوري كتابتها، وضحكوا جميعًا. ثم سأل السيد شيلي:

- أي نوع من الأحلام يا عزيزتي؟

- رأيت في منامي شابًا يطمح أن يصبح طبيبًا، وهو طالب شاحب يدرس الفنون الشريرة، كان جاثيا على ركبتيه بجانب الكائن الذي كان قد جمعه للتو...

- وماذا أيضًا؟ كل من حول المائدة، الآن، مهتمون.

- أولًا، كان الرجل المتمدد جثة. بعد ذلك، وبقدرة عبقري قوي ما، وبفضل الطاقة التي يفرغها برق العاصفة، بدأت تظهر عليه علامات الحياة وبدأ يهتز بحركة خرقاء وحيوية زائفة.

لم تقل السيدة شيلي أكثر طيلة ذلك الصباح، بل ذهبت تتجول في الغابة، ولم يرها أحد.

من هذه التسلية الأدبية لتلك الليلة ليوم ١٧ يونيو ١٨١٦، نتجت أربعة أعمال. كتب اللورد بايرون قصة **الدفن**، غير مكتملة. كتب بيرسي شيلي قصة **القتلة**، غير مكتملة. كتب

الدكتور بوليدوري قصة مصاص الدماء، التي تستلهم العديد من السمات المميزة لشخصية السيد بايرون، والتي انتهى بها الأمر لاحقًا إلى التأثير على أعمال مصاصي الدماء للسيد بو والسيد دوماس ودراكولا المشهور للسيد ستوكر. وكتبت ماري وولستونكرافت شيلي قصة الحلم، منطلقة من رؤيتها الشبحية لذلك الصباح العاصف، وهي القصة التي ستأخذ، بعد عام، شكل رواية فرانكشتاين أو بروميثيوس الحديث. وهي، دون أدنى شك، العمل الذي تجاوز في شهرته جميع الأعمال الأخرى التي تمَّ تصوُّرها تلك الليلة نفسها في فيلا ديوداتي وفي باقي القارة الأوروبية.

٣٣

تشير الدراسات الوبائية الحديثة إلى أن «متلازمة التشنج المهني» ليست نادرة كما كان الاعتقاد سائدًا، وأن ثلاثة من كل عشرة آلاف مواطن يعانون منها. ومع ذلك، حتى بعد هذا الجرد الجديد، فإنها ما تزال، من الناحية الإحصائية، مرضًا شاذًا أكثر بكثير من التشويه المبتذل الذي كان يعاني منه الشاعر اللورد بايرون. ناهيك عن أنني تطاردني، أيضًا بنفس القدر، عشرات من العلل الأخرى غير المحتملة، ومضايقات قدمي العملاقة. بهذه البيانات، وبعيدًا عن الرغبة في إقامة أي مقارنة غير عادلة، أعتزم فقط أن أوضح، بما لا يدع مجالاً للشك، أن القدَر -على الأقل من الناحية الإحصائية- أطلق غيظه عليّ بقسوة غير عادية.

«متلازمة التشنج المهني» مرض عصبي يتميز بانقباضات عضلية لا إرادية ومتكررة، على شكل تشنجات لا إرادية، مع نوبات قد تستمر من بضع دقائق إلى بضع ساعات. ما يزال سببها غير معروف حتى يوم الناس هذا، ولكن من المعروف

أنها يمكن أن تتطور بعد صدمة على شكل إصابات في الجهاز العصبي المركزي، في العقد القاعدية للدماغ، وهي الهياكل التشريحية الأكثر ارتباطًا بآليات التحكم في الحركة.

منذ الأدبيات الطبية للقرن الثامن عشر، نجد إشارات إلى وصف أول خلل في التوتر العضلي، وهو «تشنج الجراف» أو «تشنج الكاتب»، والذي يرتكز، مثلما هو الحال عندي وكباقي التوترات العضلية المهنية، على مجموعة عضلية واحدة. ومع مر السنين، صنف الأطباء المتخصصون أصنافًا أخرى من هذا المرض، مثل «تشنج لاعب التنس»، و«تشنج لاعب الغولف»، و«تشنج عازف الناي»، و«تشنج عازف البيانو»، و«تشنج الحداد»، و«تشنج النشار»، و«تشنج حالب البقر»، و«تشنج الخياطة»، أو «تشنج الحلاق». من جهة أخرى، مازال من اللافت للنظر أن الباحثين أبدوا اهتمامًا كبيرًا بدراسة «تشنج الحلاق»، ولم يسبق لأحد أن خصص بعضًا من وقته لتشخيص «تشنج القاتل المحترف» وتصنيفه وعلاجه، مع أن هذا القطاع له نفس خطورة الأول، أو ربما أكثر.

ترتبط العواقب العملية الأكثر ضررًا لهذه المتلازمة بتدخلها في الأنشطة العملية للمرضى. رغم أن عشرين في المائة فقط، على سبيل المثال، من المصابين بـ «تشنج الكاتب» يضطرون إلى التوقف عن الكتابة كليًا. وغالباً هذه هي النسبة عند باقي الحرفيين المصابين. مرة أخرى، لا توجد إحصائيات مئوية حول عدد القتلة المحترفين الذين يتعين عليهم التوقف عن

القتل بسبب «متلازمة التشنج المِهْني». أتوقع أن سوء حظي لن يعاقبني بهذه الحالة أيضًا. لم يكن الأمر دائمًا على هذا النحو، حتى نكون منصفين. أحيانًا، نادرًا جدًا، يجلب لي مفاجآت سارة وليس كل شيء سيئًا كما قد يبدو في البداية. فالسيد بايرون، دون أن نذهب بعيدًا، الذي يبدو ظاهرياً أنه أكثر حظًا، انتهى به المطاف، بعد كل شيء، بالموت المبكر في سن السادسة والثلاثين، مثل والده، مثل جده، مثل جده الأكبر ومثل اللوردات الخمسة الذين سبقوه، وبذلك تتحقق اللعنة التي قيل إنها تلاحقهم. تقول الحكمة الكلاسيكية إن أولئك الذين تحبهم الآلهة يموتون صغارًا. لا بد أنه لهذا السبب، عندما بلغتُ السن المحددة ذلك اليوم، لم أقلق، على الأقل، بشأن تلك اللعنة.

٣٤

وصلت إلى شقتي بعد أطول يوم عمل أتذكره. لا تستطيع ذاكرتي الضعيفة حتى أن تؤلف بين كل الأحداث التي شكلت جدول عملي اليوم. أفترض أنني إذا استيقظت غدًا، فسأكون قادرًا على قتل بلايستين، لكن الآن لا يمكنني تحديد حتى عدد المرات التي حاولت فيها القيام بذلك اليوم. على الرغم من أنه في الواقع، ولدهشتي، فإن اليوم أصبح غدًا بالفعل، وإن دقات قلبي تغامر في فجر يوم سبت لم أتخيل بأي حال من الأحوال أنني سأعيشه. ما أن عدت إلى منزلي، حتى أخرجت وصيتي من الظرف ووضعتها على منضدة سريري المفصلي، مع قلم وورقة. على الجانب الآخر مما آمل أن يكون فراش موتي، وعلى طاولة ضيقة، وضعتُ جهاز استقبال نظام الاستماع الذي قمت بتثبيته في منزل بلايستين. ثم، بدون قفازات، بدون وشاح، ولكن ما زلت بملابسي وبمعطفي، دخلت إلى السرير، ارتبطت بجهاز التنفس المساعد، وأدرت جهاز الاستقبال.

نبضات قلبي تصل إلى أربعٍ وثمانين نبضة في الدقيقة.

ضغط دمي يتأرجح بين مائة وأربعة وعشرين مليمترًا كحد أقصى، وثمانية وستين مليمترًا كحد أدنى. درجة حرارتي تبلغ ستاً وثلاثين درجة مئوية وثمانية أعشار. أتنفس ستَّ عشرةَ مرة في الدقيقة. درجة حرارة الهواء في غرفة نومي المحيطة ستٌّ وعشرون درجة، ونسبة الرطوبة ثمانٍ وأربعون بالمائة. ميكروفونات الإرسال التي قمت بتثبيتها في منزل السيد بلايستين تشتغل عن طريق ذبذبات الراديو، ولكنها، بعد ذلك، تتصل مع ميكروفون ذو تكنولوجيا متحركة من أجل الاستقبال عن بُعد، قُمت بإخفائه في أصيص في الطابق الوسيط. في هذه اللحظة، يُسْمعني جهاز الاستقبال عن بُعد في غرفتي أصوات إدواردو بلايستين وعشيقته...

- إذن، لا يا إدواردو. في الحقيقة، إنني لا أستطيع أن أتخيل نفسي أعود للنوم في هذا السرير. الآن يبدو لي الأمر مستحيلًا.

- وماذا تريدين؟ هل نبيع المنزل هذه الليلة؟ أعتقد أنه لا توجد وكالات عقارية تعمل الآن...

- في هذه اللحظة، يبدو لي أنه من المستحيل نسيان هذا.

- سيتعين علينا، إذن، بذل جهد. غدًا سيتغير الأمر، سترين.

- هل سمعَتْ أختُك شيئًا؟

- لا. تقول إنها كانت نائمة نومًا عميقًا عندما أيقظتها.

- سعيدة الحظ. هي دائمًا تفعل ما يحلو لها. لعلها تناولت

حبوبها. وعندما ندعو أحدًا إلى عشاء، فإن أدنى ضوضاء تزعجها كثيرًا.

- هيا، عزيزتي، اتركي أختي وشأنها.

- أكيد أنها لا تتناول حبوبها هذه الليالي حتى تتمكن من وضع أذنها على الجدران، ولا تفوت أي جزئية من المحادثة. ولتتمكن من تقديم شكاواها في اليوم التالي، بالطبع.

- حسنًا، فلنهدأ. لقد مررنا للتو بموقف عنيف للغاية، لكن هذا لا يمكن أن يغير حياتَيْنا.

- لا، بل غيَّرَهُما. على الأقل، أنا لن أشعر بالأمان مرة أخرى.

- دعكِ من هذا الهراء. إذا فكرت في الأمر منذ لحظة الصدمة، فكل شيء يبدو أسوأ مما هو عليه. لا تفكري أكثر. حاولي النوم لبعض الوقت.

- أحاول أن أنام؟ لست أدري من أين تأتي بكل هذا الهدوء؟ كان هناك شخص غريب يا إدواردو، هنا على بعد نصف متر منك منذ فترة قصيرة. غريب مع قناع على رأسه.

- صدقيني، لقد رأيته.

- لكن، لا يبدو الأمر كذلك.

- وماذا أستفيد من جعله يبدو كذلك؟ لماذا لا نحاول أن نهدأ يا ميلاينا؟

- اهدأ أنت.

- وأنتِ، لا؟

- إنه نفس الرجل الذي في الحانة يا إدواردو. نفسه الذي في ستاربكس. لقد كان يتبعنا طوال اليوم.

- أعلم ذلك. لقد أغلقت جميع النوافذ، وقمت بتشغيل منبه الإنذار، ووضعت جميع الأقفال على الباب، وحتى إنني وضعت عليه كرسيًا. وقد قالت الشرطة إنها لم تعثر على أي شيء غير عادي في العمارة كلها ولا فيما حولها.

- أَطِلَّ من النافذة مرة أخرى.

- إنهم هناك، في السيارة. غداً، في الساعة الأولى من الصباح، سنذهب إلى مركز الشرطة لنقدم تقريرًا مفصلًا، تفصيلًا دقيقًا، كما اتفقنا. بماذا يمكنني أن أخبركِ أكثر؟ هذه الليلة سوف لن يعود، لقد سمعتِهم. إنني أحاول أن أطمئنك.

- حسنًا، إنك لا تفعل.

- حسنًا، هذا يكفي! أنا أيضًا أتأسف على كل هذا، وأنا أيضًا متوتر، لكن حاولي أن تكوني بنّاءة بعض الشيء.

- حسنًا.

- ما رأيك في أنَّ هذا لا يؤثر عليّ؟ اسمعي، سأحكي لك شيئًا: منذ أشهر، ما يقرب من سنة، نصف الرسائل التي تصل

إلى صندوق بريدي كانت فارغة. رسائل من مرسلين مختلفين، من مرسلين لا أعرفهم أحيانًا. أفتح الأظرفة ولا شيء، أجدها فارغة. شخص ما يفتح رسائلي ويسرقها منذ فترة طويلة. لم أرغب في إخبارك حتى لا تقلقي، فلتعلمي بذلك.

- حسنًا، لقد اخترتَ أفضل لحظة لتخبرني بذلك. الآن سوف أنام نومًا جيدًا.

(لم يُسمع شيء خلال لحظات. ثم حفيف ملاءات، صوت نوابض السرير. ثم صمت من جديد].

- هيا، سأقترح عليكِ شيئًا. تعالي نذهب إلى الصالون. سنشغل التلفزيون. أنا لن أنام، ستستلقين فوقي، وتضعين رأسك في حضني، وتحاولين التمتع بقسط من الراحة. ما رأيك؟

[صمت. ثم صوت خجول يقول]:

- حسنًا.

[حفيف ملاءات من جديد وصوت نوابض. ثم خطوات. ثم تلفزيون. يقول]:

- انتظريني هنا دقيقة واحدة فقط.

[ثم خطواته. يلتقط ميكروفون المطبخ أصواتًا مختلفة. يفتح باب ثلاجة ويغلق عدة مرات. طنين ورنين فرن ميكروويف.

طنين غريب آخر. ربما يحضر لها شيئًا لتأكله. وربما مشروبًا ساخنًا للاسترخاء، بالزيزفون، وبلسم الليمون، وحشيشة الهر، وزهر البرتقال والخزامى. أو لعله عصير برتقال طازج يحتوي على فيتامين «س» لتقوية جهاز المناعة، مركبات الفلافونويد التي تعمل على تحسين الدورة الدموية ووظيفة القلب، وزيوت أساسية تعمل كمسكنات للألم في الجهاز العصبي. ولأنه استغرق بعض الوقت، فقد يكون قام ببسترة كل ذلك، عن طريق تحويله إلى ٧٠ درجة مئوية لبضع دقائق، لأن عصير البرتقال يمكن أن يحتوي على العصوية الشمعية (باسيلس سيريس)، والسالمونيلا المعوية، والسالمونيلا هارتفورد. بعد ذلك، لا يسمع أي شيء آخر].

٣٥

مدريد، في ٢٦ يناير ٢٠٠٨، أنا، السيد م. ي.، بالغ، عزب، ساكن بشارع X، رقم X، الشقة X، مدينة مدريد، حامل للجنسية الإسبانية، وبطاقة التعريف الوطنية رقم X، أتمتع بكامل قواي العقلية وأحرر هذه الوصية بمحض إرادتي في شكل الأحكام التالية:

أتنازل لبوابة عمارتي، دونيا غيرمينا مارتينيث لوبيث، عن الممتلكات المنقولة التي تشكل أثاث الشقة الكائن بالعنوان السالف الذكر.

أتنازل لفائدة ساعي البريد في منطقتي، الذي لا أعرف اسمه، ولكنه أوصل إليّ وسلمني فواتير ووثائق لأغراض إشهارية خلال السنوات السبع وأربعة الأشهر الماضية، كما يمكن التحقق من ذلك في الوكالة البريدية المعنية، محتوى الوُرَيْقات الموجودة في العنوان المذكور، والتي يبلغ مجموعها ١،١٣٧،٠٥٧ وُريقة في موضوعات طبية وقانونية وتاريخية.

بالنسبة لما تبقى، فإني أنزِّل م. ك. وريثة لبقية أصولي

وحقوقي وأسهمي، وعلى وجه التحديد، مستفيدة من أجهزة تنفسي المساعدة وسريري المفصلي وأدواتي الطبية الأخرى؛ من أسلحتي البيضاء والنارية وأدوات التجسس والسموم النباتية والحيوانية والاصطناعية وآليات مميتة أخرى من اختراعي، طالبًا منها توخّي الحذر الشديد عند تعاملها مع تلك التي يمكن عدّها أسلحة دمار شامل، ومن المبلغ المالي النقدي المحفوظ في الخزانة الحديدية الموجودة في عنواني، داخل الغلاف السميك المكتوب عليه «أداءات ودفعات مسبقة».

أعين السيد إيلاريو غوميث ماثياس، الموظف في البنك الذي فتحت فيه حسابي الجاري، منفذًا متعاونًا لهذه الوصية، والذي، زيادة على صلاحياته القانونية، ستكون لديه سلطة المطالبة واستلام وجمع جميع أنواع المبالغ والائتمانات والمداخيل، والمبالغ التي سيتكلف بسحبها من البنوك أو الصناديق أو لدى الأشخاص الطبيعيين، بالإضافة إلى إدارة كل ما يتعلق بالوصاية سواء أكان قضائيًا أو خارج نطاق القضاء، من أجل تنفيذ فعَّال لمهمة الثقة التي أوكلها إليه.

أرغب أيضًا في أن يتم التبرع بجسدي، بعد مماتي، للعلم ليجري عليه أبحاثًا باعتباره معجزة طبية، على أمل أن يؤدي تشريحه الشرعي إلى اكتشافات مستقبلية خارقة. وهكذا، سأشعر أخيرًا، بشكل ما، بأن الناس سيفهمونني حين يصبح الاقتران المستحيل للشرور، الذي عانيت منه في عزلة تامة حتى يوم موتي، مسألة علنية. أيضًا، إذا كانت لدى أحد ما رغبة

في إرسال زهور بمناسبة جنازتي، فإني أرغب في أن يتبرع، بدلًا منها، بمبلغ ثمنها نقدًا لفائدة الاتحاد الإسباني للأمراض النادرة، حتى يستعمله القائمون عليه فيما يرونه مناسبًا.

وبموجب هذه الوصية، أنسخُ وألغي الوصايا التي أوصيتُ بها، والتي لا أذكر تاريخها ولا مُوثِّقها، وكل التي يمكن أن تظهر بتاريخ سابق لتاريخ هذه الوصية التي هي الوصية الوحيدة التي أريد أن تنفذ في كل أجزائها، باعتبارها آخر علامات إرادتي الحرة.

بذلك أوصي، في المكان والتاريخ الموضحين أعلاه، مكتوبًا كله بخط يدي على ثلاث صفحات أوقّعها في نهاية كل صفحة.

م. ي.

٣٦

في صباح يوم السبت من هذا الأسبوع الأخير، استيقظت أخيرًا شبه ميت. اتصلت بخدمات الطوارئ. لكن، عندما وصلوا، وبقدرة معجزة عظيمة، أظهر جسدي تحسنًا غير عادي. عندما فتحت عيني، كما في الحلم، رأيت ممرضًا شاحب الوجه مشكوكًا في مهنيته، جاثيًا على ركبتيه بجوار هذا الكائن الذي أعاده للتو إلى الحياة.

نبضات قلبي، الآن، ثمان وسبعون نبضة في الدقيقة. ضغط دمي مائة وعشرون مليمترًا زئبقيًا في الأقصى، وواحد وسبعون مليمترًا زئبقيًا في الأدنى. و ماتزالُ درجة حرارة غرفة نومي ستًا وعشرين درجة. وضعَ الممرضون على مائدة الصالون علبة من ألبرازولام وأخرى من فلوكستين، وكلاهما من الأدوية الجنيسة.

لم يُسمع أي شيء من جهاز الاستماع خلال ساعات؛ إلى أن دوى قبل ثوانٍ قليلة صوت مشوش نوعًا ما وكأنه صوت باب يغلق. مرت سبع دقائق أخرى، وفي الساعة ١٢:١١،

استعادت أصوات السيد بلايستين وعشيقته الحياة في غرفة نومي، على الرغم من بُعدهما عني أميالًا...

- أنا لا أرى في ماذا سيفيد هذا.

- وصفان لرجل متنكر أفضل من لا شيء حبيبتي. لا بد أنهم سيفعلون شيئًا بهما.

- نعم، أعلم ما الذي سيفعلونه. سيحفظونهما.

- حسنًا، لا شيء، إذا كنتِ ترين الأمر كذلك.

- قد يكونان الآن محفوظين حفظًا جيدًا وسط ملف جميل. هذا إذا لم يتخلصوا منهما برميهما في سلة المهملات.

- سأذهب لآخذ حمّامًا.

- ألن تُحضِّر القهوة؟

- أنا بحاجة إلى الاستحمام حبيبتي. تجدين على الرف قهوة جامايكية.

- Blue Mountain (جبل أزرق)؟

- نعم، ولكن انتبهي إلى...

- إلى آلة الإكسبريسو اليدوية Saeco، أجل، قبل كل شيء الانتباه إلى الآلة Saeco.

- يمكن أن تنكسر، لها أضراس الطحن الخزفية. اللعنة!

وأنت دائمًا تجرينها كيفما اتفق...

- حسنًا، حسنًا. لا تفزع. أكرهكَ عندما تكلمني بلكنتك الأرجنتينية.

- هذا أنا. أرجنتيني.

- ما كُنتَه، بالأحرى. منذ سنوات.

[ثلاث وعشرون ثانية من الصمت، وبعد ذلك قال بصوت منخفض]:

- وأنتِ، من تكونين؟ لا تكسري خصيتي...

[وكأنه صوت آخر، لكن ما يزال صوت بلايستين]:

- أنا ذاهب للاستحمام عزيزتي.

[بينما الماء يقطر بغزارة في وعاء الاستحمام في الحمام الثاني، وآلة تحضير القهوة تغلي في الجزيرة الصغيرة وسط المطبخ، اغتنمتُ الفرصة لتحضير شاي أخضر، بدون حليب، وقطعتين من خبز القمح الكامل بزيت الزيتون، وبرقوقي الصباحي. أعتقد أن ميلاينا أيضًا تسخن بعض الخبز، لأنني سمعت صوت جرس آلة التسخين وحركة قذفها للخبز. في مطبخ شقة السيد بلايستين يسمع صوت: Non، je ne regrette rien، لإديث بياف، بارتفاع يكفي ليعم منزلي. أمضغ خبزي بوتيرة ليست وتيرتي المعتادة. عندما أنهيت إفطاري وتوجهت

إلى الحمام، يبقى بإمكاني الاستماع إلى الموسيقى من هناك. نظرت إلى حوض استحمامي الصغير، وهو أكثر تواضعًا بكثير من ذلك الموجود في منزل بلايستين، ثم تفرغت لآخذ ذلك الذي بلا شك سيكون آخر استحمام لي جالسًا بين الأحياء. أستعمل مرهم استحمام يحتوي على ١٠ بالمائة من بندق الساحرة، والذي له خصائص قابضة ومطهرة ومضادة للالتهابات، وشامبو للأطفال، وهو أفضل ما يتحمله الجِلد وفي نفس الوقت هو عامل تنظيف ممتاز يزيل بقايا أي مرض حرشفي. جالسًا على درج الفخار في حوض استحمامي الصغير، والماء الساخن ما يزال يتدفق على رأسي، لاحظت أن بلايستين وعشيقته يتحدثان من جديد، لكن لا يمكنني فهم ما يقولانه. أقوم بتجفيف جسدي جزءاً جزءاً، بالضغط بالمنشفة عوض الفرك، حتى لا أتسبب في النهاية في أي تآكل في الطبقة الخارجية من الجلد مما قد يؤدي إلى الإكزيما. ثم ارتديت ملابسي كاملة، لا أغادر الحمام حتى أضع معطفي على ملابسي لتجنب نزلات البرد. وقبل وصولي إلى غرفة نومي، تمكنت من سماع ميلاينا تقول]:

- من الطريف أنَّ الواحدة منا لا تعلم قيمة ما هي فيه، إلى أن يحصل مثل هذا.

- هكذا نحن.

- لا نقدر الأمن الذي نتمتع به كل يوم حتى نفقده.

- أجل، هكذا نحن. لا يمكن للإنسان أن ينتبه إلى كل تفاصيل عالمه، لذلك يختار تلك التي تصبح هامّة لديه.

- هل هي حلوة بما فيه الكفاية؟ أم تريد المزيد من السكر؟

- إنها جيدة. إنها مثل ضغط الساعة على معصمي، أرأيتِ؟ لم أشعر بها حتى بدأت أتحدث عن ذلك.

- لكنني لا أفهم أي شيء يا إدواردو.

- أعلم ذلك، أنا أيضاً لا أفهم شيئاً.

- ماذا يمكن أن يكون ما يريدهُ منك؟

- أو منّا...

- لكن المنزل منزلك. ولك أنتَ سَرَقَ الرسائل.

- أجل. لا بد أنه الشخص نفسه. أكيد. لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. لكني لا أعرف عمَّ يبحث في رسائلي. لا أستطيع تخمين ما قد يريده.

- هل تظن أنه كان يسعى إلى قتلنا؟

- لا. لا أعلم. لماذا؟ لأجل ماذا؟

- أنا صحيح أنني لا أعرف يا إدواردو. فكر في الأمر أنت.

ربما هناك شيء ما.

- ماذا سيكون هناك؟ ماذا يمكن لأي شخص أن يكسب بأخذه حياتي مني؟



- إدواردو.

- ماذا هناك؟

- أنا سأموت إذا اختفيتَ فجأة... لكن دعنا من هذا الآن. لماذا يريد أي شخص قتلك؟ لا بد أنه مجرد لص عادي. بالتأكيد لن يعود.

[وبينما السيد بلايستين وعشيقته يتحدثان، أفكر أنا في خطتي الجديدة للقضاء على هدفي. لقد كانت محاولاتي الأخيرة لاغتياله متسرعة للغاية، وغير محسوبة جيدًا، ولا شك أنَّ ذلك بسبب الضغط الذي تعرضتُ له. عليّ اليوم أن أخطط لاستراتيجيتي بالميليمتر. لم أتناول أي مؤثرات عقلية منذ يومين، وعلب الأدوية التي تركها الممرضون ما تزال غير مفتوحة على المائدة، وقد وجدتُ التسويغ القانوني لمحاولتي القادمة لاغتياله. ما تبقى هو الجانب التطبيقي في عملية القتل، بأي لباس سأتنكر، وبأي سلاح سآخذ حياة إدواردو بلايستين؟].

- نعم، أرغب في ذلك.

- حسنًا، وهو كذلك. نأخذ السيارة ونصعد إلى الجبل حتى

نترك كل أثر للمدينة وراءنا.

- هل تريد أن أحضِّر سلة نزهة؟

- لا. هكذا نخرج حالاً. أعرف مطعمًا في غواداراما يطبخون فيه لحمًا شهيًا.

- حسنًا، سأرتدي قبعتي القشية لأول مرة. هل سيكون الجو باردًا؟ فنحن في عز الشتاء...

- لا، تحت الشمس لا أظن. لذا يمكنكِ ارتداء فستانكِ الأبيض الشفاف.

- لا تبالغ... يا إدواردو...

- صحيح؟

- أحبك.

[الجملة الأخيرة تلتْها ثمانٍ وعشرون دقيقة صمت، أسمع خلالها من جهاز الاستقبال عن بعد فقط أصوات أبواب خزانات ملابس ومجففات شعر ومياه جارية في كلا الحمامين. ربما يغسلان أيديهما بمعقم كحولي له تأثير قوي مبيد للجراثيم والفطريات والفيروسات، بسبب محتواه العالي من الكحول الإيثيلي. ثم مرة أخرى خطوات في الممر باتجاه الباب الأمامي، وبعض الضحك. ثم يرن جرس المنزل. يبقى كل شيء معلقًا لمدة دقيقة تقريبًا، حتى يرن الجرس مرة أخرى.

الآن يسمع صرير القفل، ثم ينضم صوت جديد إلى الصوتين المألوفين].

- أوه، مرحبًا، أهذهِ أنتِ؟

- نعم، هذه أنا، هل أنتما ذاهبان إلى مكان ما؟

- أجل، في الحقيقة كنا نتأهب للخروج الآن.

- حسنًا، لا تقلقا علي. جئت فقط لأطمئن عليكما.

[انتقل الصوت الجديد من كونه غير مسموع تقريبًا إلى موقع قريب جدًا من الميكروفون في تلك المنطقة من منزل بلايستين].

- نحنُ بخير، لاورا.

- من سيقول هذا يا إدواردو؟ وجهاكما سيئان. إلى أين أنتما ذاهبان؟ إلى مركز الشرطة؟

- لا، حتى إن كنتِ لا تصدقين، فنحن لدينا خطط أفضل لقضاء يوم السبت.

- كنا في مركز الشرطة في الساعة الأولى من هذا الصباح يا لاورا. الآن نريد الذهاب إلى الريف للاسترخاء قليلًا ونسيان كل شيء.

- وهل تعتقدان حقًا أنَّ ابتعادكما عن المدينة فكرة جيدة؟ ماذا لو حدث شيء ما؟

- ماذا سيحدث؟ لا تكوني نذيرة شؤم. ثم إننا نحمل معنا هاتفينا.

- نعم، أعرف. لكن في الريف... قد لا تكون هناك تغطية.

- جيد. سنتدبر أمرنا.

- إذن، أنتما بخير؟ أين رأيتما اللص؟ من أين تعتقدان أنه دخل؟

- اتركي هذا الأمر الآن يا لاورا. ليست لدينا رغبة في الحديث عنه.

- أسأل فقط لأنهم قد يدخلون بيتي أيضًا من نفس المكان. لا تكن أنانيًا جدًا معي يا إدواردو. أنت لا تهتم أبدًا بأختك. نحن الاثنين نقطن الواحد مقابل الآخر، لكن أحيانًا يبدو لي أنه ليس لديَّ أخ.

- سأترككما تتحدثان. لدي أشياء أريد القيام بها.

- لا يا ميلاينا. هيا بنا. لاورا، لقد تأخرنا...

- نعم، أعرف، أعرف. أخيرًا جعلتما للصالون ستائر؟

- نعم، لكن... انتظري... لماذا لا تأتين لاحقًا وترينها؟ الآن لا يمكننا استقبالكِ.

- لا بأس، لا بأس. سأغادر. سأتصل بكما بعد قليل لمعرفة ما إذا كنتما بخير. وسأعود لاحقًا.

[سمع صوت القفل مرة أخرى. ومرة أخرى صمت مطبق].

- أفكر في إغلاق هاتفي المحمول.

- سوف تسمعكِ يا ميلاينا.

- فلتسمعْ، لماذا لا تأتين لاحقًا؟ لماذا لا تأتين لاحقًا؟ لم تجد أي طريقة أخرى أفضل لطردها.

- في تلك اللحظة، لا.

- حسنًا، أمَّا أنا فقد خطرت على بالي عدة طرق.

- هيا، تعالي، دعينا ننسى الأمر، ونتظاهر بأن سبتنا يبدأ من هذه اللحظة. هل أنت جاهزة؟ هل لدينا كل شيء؟

- أجل. ما هذا؟

- لا أدري!

[يرنّ الصوتان في المدخل. سُمع أيضًا صوت هامس غير محدد، وطرقة معدنية طفيفة. سألته]:

- ألن تفتحها؟

- لا. بعد عودتنا، ربما.

[غادر إدواردو بلايستين وعشيقته الشقة. أتصور أنَّ ما تركه دون أن يفتحه على طاولة المدخل هي الرسالة الأخيرة التي أرسلتُها إليه. هذه المرة من عنوان مرسل أنثى من نفس المدينة،

مع عنوانيّ الوِجهة والمرسِل مكتوبين بحبر أزرق بخط واضح ومستدير على الجزء الخارجي من الظرف. منذ سنة وأنا أرسل للسيد بلايستين مراسلات كاذبة، ثلاث وخمسون رسالة في المجموع، من واحد وثلاثين مرسلًا مختلفًا، وقادمة مما يقارب سبع مناطق مختلفة. دائمًا عبارة عن أظرف فارغة لا شيء بداخلها. مع حرص شديد على إبراز الحرف «B» من «الطابق الخامس B»، و «إدواردو» من «إدواردو بلايستين»، حتى لا يقع أي خلط في الشقة أو الاسم العائلي وينتهي الأمر بالرسائل إلى الصندوق البريدي لأخته المجاور لصندوقه. هذا الروتين، بالطبع، ليس ناتجاً عن أي عداوة شخصية، أنا لا أستمتع به على الإطلاق، إنه مجرد إجراء آخر من الإجراءات التي يجب على القاتل المحترف اتباعها لتحقيق عدم الاستقرار النفسي، وما يترتب على ذلك من إهمال لدى هدفه].

٣٧

١٤:٠٧ زوالًا. محاولة الشروع في القتل الخطأ عن طريق متلازمة الامتناع.

أنا في سيارة أجرة منذ ساعة تقريبًا، ويعتقد السائق أنني أمزح معه. عندما ركبت السيارة، سألني إلى أين سنذهب، وأجبته أنه ربما إلى جبل غواداراما، وأني لست متأكدًا. قال إنه يجب أن يعرف المكان بالتدقيق لإدخال البيانات في نظام GPS، لكنني أجبته أن ذلك سيكون بحسب ما يخبرني به نظام GPS الخاص بي. نظر إليَّ في مرآة الرؤية الخلفية نظرة قذرة. وزيادة على أنه لسوء حظي أعاني من حَوَلٍ ملحوظ ومعه مرض تضخم، فقد اعتقد الرجل أنني كنت أحدق فيه أثناء قيادته، بينما أنا، في الواقع، كنت أركز بعيني اليسرى متتبعًا خطوات محدِّدِ موقع سيارة السيد بلايستين على الشاشة الصغيرة من جهازي. سرنا أكثر من عشرين دقيقة على الطريق رقم A-6 عندما ارتعشت سبابتي، فاضطررت إلى إخفاء يدي في جيب معطفي حتى لا يظن أنني أهدده. لحسن الحظ، أحضرت معي نقودًا كافية لدفع

ثمن الرحلة نقدًا، وليس هناك خطر في أن يراني سائق سيارة الأجرة أبتسم.

لم أتناول أي دواء يؤثر على الجهاز العصبي منذ يومين. بسبب أمراضي التي لا تحصى وعلاجاتها، تطور لدي اتكال كبير على الأدوية، وفي هذه اللحظات بدأت متلازمة الامتناع في الظهور، ومن ثمَّ التشنجات اللا إرادية التي أنطق بها، والحركة الانفلاتية لعيني اليمنى التي تنعرج نحو الأعلى مثل طافية، والحكة التي تخترق جسدي كله من تحت ملابسي، وحديثي بشكل أسرع مع رعشة طفيفة في المقاطع الأخيرة للكلمات. حسب القانون الجنائي، في حالة ارتكاب جريمة، ومن أجل تفادي المسؤولية يلزم وجود متلازمة الامتناع التي تمنع فهم عدم قانونية ذلك الفعل، أي الاضطراب الضروري للتخفيف من قدرة الفاعل على ارتكاب الجريمة، زيادة على شخصيته التي يضعفها القلق والتهيج والضراوة الخارجة عن السيطرة. وفي حالة الاعتقال، قد تلجأ السلطات، للتحقق من أقوالي، إلى آراء خبراء محتملين -سواء كانوا متخصصين في الطب الشرعي أم لا- وإلى سجلاتي الطبية، وإلى قائمة العلاجات الدوائية التي خضعت لها، وكذلك كل ما هو ضروري للتحقق من صحة متلازمة الامتناع هذه. وهذا شيء لا يجب أن أقلق بشأنه بتاتًا.

عندما توقف الضوء الأحمر الصغير الذي يمثل سيارة بلايستين على شاشة نظام GPS لدي، في اللحظة التي أخبر

فيها السائق بالتوقف متى أمكنه ذلك، استطعت أن أرى، من خلال النافذة الأمامية، السيارة رباعية الدفع ذات اللون الرمادي المعدني تحت صف من الأشجار، على بعد حوالي مائة متر. سألت السائق بكم أدين له، فأجاب: بثلاثة وثمانين يورو. أخرجت حفنة من الأوراق النقدية من محفظتي، ومددتهُا إليه بيدي اليمنى، وسبابتي تتشنج وتضغط على الأوراق النقدية، وأنا أقول:

- خذ، خذ، خذ، خذ!

- ولكن ما هذا! هذا ما كان ينقصنا! -انفجر السائق- هذا هو ثمن الرحلة! إذا كنت لا ترغب في دفعه، فما كان عليك أن تستقل سيارة أجرة من مدريد إلى غواداراما. استقل حافلة، تبًّا.

أجبته:

- ليس لدي أي مشكلة في المبلغ يا سيدي. لا مشكلة. لا مشكلة. ليس لدي مشكلة. احتفظ بالباقي!

- اللعنة على هذا الرجل! همس السائق. أعتقد أنه كان خائفًا بعض الشيء، على الرغم من حجمه.

قلت له:

- في الواقع، كنت سأطلب منك، إذا لم يكن لديك مانع، أن تنتظرني هنا لإرجاعي. بالطبع سأدفع ما يحصيه العداد خلال وقت الانتظار.

لكن السائق لم يجبني. وعندما نزلت من السيارة انطلق فجأة، وربما أيضا بشيء من العنف، مخلفًا، على كل حال، سحابة من الغبار على حصى كتف الطريق أجبرتني على تغطية فمي بمنديل.

ذهب السيد بلايستين وعشيقته لتناول الغداء في المطعم الوحيد الذي يبدو أنه في قمة هذا الجبل. أشعر بجوع حقيقي، ومع ذلك، لا أستطيع الدخول لأكل تلك اللحوم الرائعة التي جُلبت من بعيد من أجل ضحيتي، لأنني في النهاية لم أتنكر، ولا يمكنني المخاطرة بأن يتعرف عليّ أحد قبل الأوان. تتضمن خطتي وضع حد لحياة بلايستين، لا لحياة عشيقته. سوف أقترب منه كمجنون، وأصرخ «أنا بحاجة إلى دواء! أحتاج دواء!»، وقبل أن يفعل أي شيء لمنعي، سأرميه من على جرف مميت. لكن إذا خضعت لمحاكمة محتملة، فسوف تعمل هي كشاهدة ضدي، ولن ينسجم مع ادعائي بشأن متلازمة الامتناع كوني كنت متخفيًا وقت ارتكاب الجريمة. لهذا كان هذا الخيار أفضل. لذلك جئت اليوم بدون قناع أو استخفاء، لكي تتمكن من رؤيتي عندما أنتهي أخيرًا من عملي، وتتعرف عليّ في قفص الاتهام في قاعة المحكمة، وبعد ذلك، عندما يحين الوقت، من يدري؟ قد نبدأ في خلق تعارف بيننا.

ما لم أضرب له حسابًا هو أن السيد بلايستين وعشيقته عندما غادرا المطعم، ركبا السيارة مرة أخرى. وعندما فعلا ذلك، لم يبق أمامي خيار سوى الركض وراءهما، على أمل

وحيد هو أن لا يبتعدا إلا بأمتار قليلة فقط، وأنا أكاد يغمى عليّ من الجوع، وأحس بألم ثاقب في عظم فخذي، وأجرُّ قدمي اليمنى المشوهة على حصى طريق من تراب، وأغطي أنفي وفمي حتى لا أختنق بستارة الغبار التي تثيرها عجلات سيارتهما. بعد بضع دقائق، لم أعد أراهما، لكنني أستمر في التقدم الآن بوتيرة سريعة وبعرج، رغم أنني أشعر بتدفق دم متصاعد يحرق بلعومي وحنجرتي وشعبي الهوائية ورئتيَّ. بعد فترة من الوقت، لا أستطيع حسابها على ساعتي، لأن رؤيتي غائمة، وكل الواقع يقفز إلى أعلى و إلى أسفل مثل شريط فيلم يخرج من جهاز العرض، أتعرف على سيارة السيد بلايستين رباعية الدفع ذات اللون الرمادي المعدني الواقفة تحت شجرة بلوط. آخذ وقتي لاسترجاع طاقتي. التقطت أنفاسي. معدل نبضات قلبي يستقر. رغم أن النبضات ما تزال في مستوى ثمانٍ وتسعين نبضة في الدقيقة، وأتنفس ست مرات كل عشر ثوان. عندما تتوقف دقات قلبي عن الطنين في أذني، أميز أصوات إدواردو بلايستين وعشيقته من بعيد.

اقتربت فوجدت أنهما أدنى مني بحوالي خمسة عشر مترًا، على حافة جبلية تتيح مناظر أفضل بسبب عدم وجود أشجار. نحن في واحدة من أعلى النقاط في السلسلة الجبلية. فوقنا ما تزال بعض القمم الصخرية مغطاة بالثلوج، وفي الأسفل يمكنك رؤية مجموعات من غابات الصنوبر الخضراء الكثيفة، وبحيرة فضية صغيرة من المحتمل أن تكون من أصل جليدي.

أسمع تعليق السيد بلايستين وعشيقته بأن المشهد من هناك يحبس الأنفاس. لكن في الواقع، أفضل ما في الأمر أنه لا يوجد في تلك الشرفة الطبيعية، التي نحن عليها، شيء سوى شجيرات وعدد قليل من أشجار الصنوبر المعزولة، لذلك لن يكون لدى بلايستين ما يمسك به عندما يسقط من على ارتفاع يزيد عن ألفي متر. أقتربُ قدرما أستطيع، محاولًا عدم إحداث ضوضاء، ولا الوطء على أي شيء يمكن أن يئنّ أكثر من عظامي. أستجمع قوتي وألقي بنفسي عليهما. أصرخ بصوت عال جدًا:

- أدوية! أحتاج إلى دواء!

ولست مضطرًا لتمثيل أي شيء، لأنني حقًا بحاجة إلى دواء. وعندما خرج الصوت من حلقي فإنه خرج بقوة يائسة ولا معنى لها. في البداية، استدار بلايستين وعشيقته مذعورِيْن، وعينا كل منهما مفتوحتان كعيني أرنب فاجأتهُ أضواء سيارة في منتصف الليل؛ لكن بعد ذلك، عندما ركضت نحوه، عندما حددته هدفي الوحيد وانقضضت على جسده، الذي هو على وشك الانفصال عنه إلى الأبد، أمسك بي بحركة حازمة واحتضنني بذراعيه، وجمد حتى انتهيت بالاستسلام له، وأنا بالكاد أتحرك في محاولة عبثية لتحرير نفسي من الفخ الذي هزمني به. قال لي:

- اهدأ يا رجل. اهدأ.

لم أتمكن إلا من قول:

- أدويتي...

- هذا الرجل مريض -قال السيد بلايستين لعشيقته، التي ما تزال شاحبة الوجه منذ أن رأتني من المنحدر. أشعر بالتحسن للحظة، لأنني أشعر أنَّ هناك من يفهمني. فعلًا، أنا مريض.

أخذني إدواردو بلايستين وعشيقته إلى سيارتهما، ووضعاني في المقعد الخلفي. عندما ألاحظ أن السيارة رباعية الدفع تبدأ بالنزول على الطريق الترابي، أدرك أنها فرصة فريدة للسيطرة على الموقف، والاستيلاء على عجلة القيادة من الخلف، وتوجيه السيارة، ونحن الذين فيها، حتى تقع في الفراغ. لكنني مرهق، ومرتاح حقًا في هذا المقعد الخلفي، يحملني الاثنان إلى مكان ما حيث يمكنهما إعطائي الرعاية التي أحتاجها. رائحة المقعد جديدة ونظيفة، وعليّ أن أبذل جهودًا حقيقية حتى لا أنام هادئًا بتأثير محادثة الاثنين في المقعدين الأماميين للسيارة، واللذين أراهما يبتعدان عني أكثر فأكثر.

- أعتقد أني جرحتُ يدي.

- دعني أرى... لعلك ضغطت على معصمك عند رفعه.

- لا يمكنني تحريكها. إنها تؤلمني... هل تعتقد أن أخذه معنا في السيارة شيء آمن يا إدواردو؟

- لا تقلقي يا امرأة، هذا الرجل فقد السيطرة على نفسه، أعتقد أنه يشكو من اضطراب نفسي.

- اعتقدت للحظة أنه هو الذي...

- مستحيل.

- لا؟

- هذا الرجل أكثر نحافة، إنه لا يستطيع أن يؤذي ولو ذبابة. إنه مريض، فقط مريض.

- حسنًا، كاد قلبي أن يقفز من مكانه عندما رأيته. أظن بأنني مصابة بشيء من جنون العظمة أو الاضطهاد.

- هذا أمر طبيعي. أنا أيضًا اعتقدت الشيء نفسه. لكن ثقي بي، أنا عالم بالفراسة جيد جدًا. لم أر هذا الرجل في حياتي.

لست أدري هل كان ذلك بسبب ارتياحي لأن بلايستين لم يتعرف عليّ، لكني أعتقد أنه في مرحلة ما على طول الطريق انتهى بي المطاف بالنوم، مخاطرًا بحياتي مرة أخرى. أنا متأكد تقريبًا، لأنني عندما فتحت عيني بعد فترة قصيرة وجدت نفسي في محطة إغاثة جبلية، ولا يوجد أي أثر لإدواردو بلايستين أو عشيقته أينما نظرت. لقد تركَاني عديما الوعي هنا دون أن يعلما أنَّ هذا يمكن أن يكون مكان راحتي الأخيرة بين الأحياء، دون أن يعرفا أنه في هذه الساعة يمكن أن أكون قد مت، مخنوقًا بنقص الأكسجين في دمي، وخيانة لقدرة التهوية السنخية المضطربة.

هذا الهدف سيقتلني، بالتأكيد.

٣٨

لن يفاجأ أحد بعد الآن، في هذا المستوى، بكون صامويل تايلور كوليردج وُلِد، يوم ٢١ أكتوبر ١٧٧٢، في بلدة إنجليزية صغيرة كانت تنمو وهي محاطة بآخر امتداد لنهر أوتر. وقد تثير تقريبًا ابتسامة طفيفة معرفة خبر مؤسف مفاده أن السيد كوليردج الصغير فقدَ والده فجأة قبل أسبوعين من عيد ميلاده التاسع. وقد كان الأب نائبًا عن كنيسة أوتيري الرائعة، التي بنيت لتكون نسخة مصغرة من كاتدرائية إكستر؛ لأن تلك التي كان من الممكن اعتبارها في البداية مصادفات غريبة صغيرة، تشبه أكثر فأكثر في مجموعها خطة إلهية مظلمة لا نهاية لها تم إعدادها وفق خصائص لا يمكن سبرها. لذلك، يمكن قراءة تاريخ هذا الفيلسوف والشاعر الرهيف باعتباره جزءًا من تاريخ أكبر، هو تاريخنا جميعًا، أرواحًا حساسة وملعونة؛ لذلك، لا ينبغي القول إن طفولته كانت تعيسة، ولا أن إيذاء إخوته له انتهى به إلى الانحباس داخل الجدران الأربعة للمكتبة المحلية المتواضعة، حيث تعلم اللجوء إلى أصدقائه الكتب، كما لا يعد من الضروري توضيح كون تلك القراءات كانت عديمة الفائدة

ساعة إنقاذه من المرض الذي طارده منذ طفولته وأجبره على التعود على تناول اللودانوم لأغراض علاجية -وهو مركب من مائتي جرام من الأفيون، ومائة جرام من الزعفران، وخمسة عشر جرامًا من القرفة، وخمسة عشر جرامًا من القرنفل، وأكثر من لتر ونصف من نبيذ مالقة، الذي جعله الدكتور سيدنهام موضة في إنجلترا، وقام بتسويقه باسمه الشخصي- ولا حتى عندما لم يكن السيد كوليردج الصغير يبلغ طوله تسعين سنتيمترًا، على الرغم من رأسه الكبير، كان يوقظ جيرانه بدموعه في منتصف الليل، بسبب حرمانه من جرعته المألوفة.

مع مرور السنين، أصبح السيد كوليردج بدينًا ومترفهاً، ثرثارًا، ينخره شعوره بالشر والذنب، ومعاناته جراء مأساته الشخصية اعتبارًا لروحه الحساسة، وبظهور ألم روماتيزمي زادَ من إدمانه على الأفيون. بلغ الأمر بالفيلسوف أنه يبتلع نصف لتر من اللودانوم يوميًا؛ مما يعني خمسة وثلاثين جرامًا من الأفيون يوميًا، وعلى هذا، ما دام أنه هو مبدأ نشاطه الأساسي، ثلاثة جرامات ونصف من المورفين يومًا بعد يوم. هذه الكمية، حتى بالنظر إلى حجمه ووزنه، لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفالها.

كما هو متوقع، هناك مَنْ أثار شكوكًا حول كون المورفين هو السبب الحقيقي لأحلام السيد كوليريدج المليئة بالصور، وأيضًا الحبكات الملوَّنة والمهلوَسة في كتاباته. لكن، لقد أظهرت الدراسات العلمية الحديثة أن للمورفين خاصية

تثبيط النوم بحركة العين السريعة، أو النوم المتناقض، وهو الوحيد الذي يمكن أن يلتصق في الذاكرة. ومن ثم، يجب أن نفترض أن السيد كوليردج لم يجرب سوى النوم الخفيف، النوم المتناقض، أو النوم «بلا أحلام»، كلما كان تحت تأثير حبيبه اللودانوم. وكلما سأله أحدهم، في مناسبة ما، عن هذا الموضوع، كان الشاعر يصوغ دائمًا نفس العبارة الغامضة فيقول متحديًا:

- إذا عبرَ رجل الجنة وهو في حلم، وأعطوه زهرة بمثابة دليل على أنه كان هناك، وإذا استيقظ ووجد تلك الزهرة في يده، فماذا، إذن؟

يظل محاوره مرتبكًا لدرجة أنه لا يستطيع الإجابة، في معظم الحالات لأنه في الواقع لا يفهم حتى إلى أين يريد الشاعر أن يصل بكل هذا التفكير.

مذ كان طفلاً حساسًا وسريع المرض، كان صموئيل تايلور كوليردج يجد في اللودانوم علاجًا لنوبات اكتئابه. وفي وقت لاحق، عندما أراد التخلص من المخدرات والابتعاد عنها، وجد في الجبال علاجًا للتخفيف من متلازمة الامتناع لديه؛ كان المشي والصعود والتسلق عزاءه ومصدر ترويح الشاعر الرومانسي عن نفسه، الذي كان ينسحب، أحيانًا، فترات طويلة لإزالة السموم في أماكن بعيدة. وبعد ظهر أحد أيام الصيف في عام ١٧٩٧، كان السيد كوليردج -الذي كان له،

كما يعلم الجميع، نفس الخدود البضة على وجهه مثل السيد سويفت، الذي يمكن تمييزه فقط بعدم ارتداء باروكة بيضاء وصفراء مائلة إلى الحمرة- منهمكًا في كتابة قصيدة داخل مأوى خشبي في مكانٍ ناءٍ من منطقة إكسمور، نوافذه مقفلة وعليها عوارض لمنع دخول الرطوبة وتطفل الفضوليين. ذاك الصباح، وعلى عادته، صعد إلى أعلى تل في المنطقة المجاورة ليخفف من نقص المخدر في جهازه العصبي، وكان قد تأمَّل المنظر الطبيعي الساحر الذي يُعرَض أمام نظره: القمم الجليدية والصخرية، مجموعات أشجار البلوط والدردار ذات اللون الأخضر الغامق، والمنحدرات التي تنكسر فوق المحيط الأطلسي الفضي. وعندما أراد النزول، اختار أصعب طريق من كل الطرق الممكنة: ممر محاط بـالمنحدرات استسلم للسقوط عبره مدفوعًا بالجاذبية وحدها. وصل إلى المأوى وهو يضحك على نفسه مثل معتوه. أغلق الأبواب والنوافذ، شرب نصف لتر من اللودانوم الذي كان يُخبّئهُ لحالات الطوارئ، وبدأ يقرأ مقاطع تتحدث عن بناء قصر في الشرق من قبل إمبراطور مغولي، ثم نام، وحلم بقصيدته.

عندما استيقظ السيد كوليردج، تذكر بوضوح فريد نصًا مكونًا من ثلاثمائة بيت. جلس على المكتب المتواضع، غمسَ ريشته في المحبرة، وبدأ في تشكيله على الورق. نتجت عن الحلم مقطوعة غنائية بعنوان «كوبلا خان» تدور أحداثها في الشرق القديم، مليئة بصور الأحلام ومكتوبة بموسيقى قوس

قزح. أمَّا ما لم يستطع السيد كوليردج معرفته، لأن هذه المعلومة لن تنشر في أوروبا، وتحديداً في باريس، إلا بعد مرور أكثر من عشرين عامًا، هو أنَّ الإمبراطور المغولي الذي قرأ عنه كان قد أمر ببناء قصره وفقًا لإملاءات كشفتها له رؤيا رآها في الأحلام.

٣٩

أنا في ماكدونالدز في شارع إسحاق بيرال، خلف ساحة لا مونكلوا، مكتئبٌ مرهقٌ ومحبطٌ، في أقصى حدود قوتي، أمسك بيدي هامبرغر من نوع «ماكرويال دولوكس» من لحم بقر مائة بالمائة، مع طماطم طبيعية، وخس، وجبنة شيدر ذائبة. اضطررت إلى أن أستقل حافلة للعودة من الجبل، انتظرتها ثلاثين دقيقة، واستغرقت خمسًا وخمسين دقيقة لإتمام مسارها، لأنه لم تكن هناك إمكانية إيجاد سيارة أجرة. بمجرد صعودي إلى الحافلة، تأكدت تمامًا أنني مطاردٌ. هناك من يراقبني من بين المقاعد، وعندما أستدير أُفاجأ بالرؤوس التي تحاول تدقيق نظرها فيّ تختبئ خلف مساند الظهر. أعرف من يطاردني، الوحيد القادر على الإمساك بي أينما ذهبت: سوء حظي الذي لا يعرف الكلل. ذلك ما حاولت أن أخبر به سائق الحافلة، لكن مستخدم شركة النقل البلدية لِمَا بين المدن لم يرد أن يقتنع بكلامي. بعد ذلك، بعد أن تمكنت من النزول عند تقاطع مونكلوا، أحسست إحساسًا واضحًا وجليًا بأن هناك من يراقبني من خلال أرصفة الخطوط العديدة، والسلالم

المتحركة، بعيدًا عن أبواب الخروج. عندما اقتربت من ماكدونالدز هذا، كنت أشعر بجوع شديد لدرجة أنني، بتَغَلُّبي على جميع المساوئ والمخاطر التي يشكلها على صحتي، ومتجاوزًا نظامي الغذائي الصارم الذي لا أتناول فيه إلا البيض وكل ما هو نباتي، دخلتُ لأول مرة محلًا بهذه الخصائص، اقتربتُ من أحد صناديق تسجيل الطلبيات، وباستخدام كل مهاراتي التفاوضية، أقنعت المستخدم الشاب بأن يقدم لي هذا الهامبرغر بلحم قليل الطبخ وبدون صلصة مايونيز ولا خردل.

في هذه اللحظة، بينما أنا أتناول طعامي، سمعت أمًّا، على الطاولة المجاورة، تسأل ابنها إذا كان على ما يرام، فأجابها بنعم. بعد ذلك، أخبرت الأم الأب أن هناك وباءً في مدرسة الطفل أصاب عددًا كبيرًا من التلاميذ، لكني لم أتمكن من سماع اسم العدوى المعنية. من حولي، تتحرك مجموعات من المراهقين وهم لا يعرفون جيدًا ماذا يريدون، يختار البعض منهم مائدة، وبعد فترة ينتقلون إلى أخرى. منهم مراهقون مهمتهم طلب الطعام وإحضاره؛ وآخرون يبدو أنهم مكلفون باختبار المقاعد. عندما أكلت نصف الهامبرغر، وأنا أمضغ كل قضمة خمسًا وعشرين مرة، فاجأني حدثٌ لم أكن أعرفه حتى الآن. عضضت اللحم وكان مذاقه مثل آيس كريم بنكهة الفانيليا وكريم الكراميل. قربت السندويتش إلى أنفي، شممته، ففاجأتني منه رائحة المرهم المضاد لالتهاب العضلات. لم أفهم ما يحدث للوهلة الأولى، لكنني فهمت بعد ذلك. أدركت أن مرضًا جديدًا يهاجمني. مرض آخر عليّ إضافته إلى قائمة

عللي. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن أهدأ. على بعد أمتار قليلة مني، يحاول المسؤول عن المحل، وهو يكبر أولئك المراهقين ببضع سنوات، طرد متسول كان يطلب صدقة من الزبائن. على المائدة المجاورة، يسأل الأب ابنه إذا كان على ما يرام، فيجيبه «لا كما ينبغي». تسأله الأم إذا كان يحس بحرارة مرتفعة، فيجيبها «نعم نوعًا ما». حدَّقتُ في لحم الهامبرغر الذي آكله، قضمته فأحسست بمذاقه كأنه نشا البطاطس المجفف والنشا المعدل. أعود لشم الساندويتش مرة أخرى على بعد سنتيمتر واحد، فتصعد إلى أنفي رائحة عطر امرأة، لعله Loewe Water. هذا مبلغ سوء حظي. أن أحرم حتى من تناول طعامي وتذوقه. أحتاج إلى دليل آخر. أنظر إلى الجزء الخلفي من يدي، وأقربه إلى فمي، ألحس جلدي، فأجد طعمه مثل طعم الملونات، والمواد الحمضية، ونكهات الفراولة. وعندما أنظر حولي أرى أن مذاق الفراولة يأتي من حلوى مصاصة لدى المراهق الذي يجلس على يساري على بعد ثلاثة أمتار. لا شك أنني أعاني من مرض جديد. أشكو من اضطراب عصبي في المعالجة الحسية للروائح والمذاقات. مرض غير مصنف.

تركت باقي الطعام في علبته الورقية، على الطبق البلاستيكي. ثم نهضت واتجهت إلى الباب لأخرج من هناك وإلى الأبد. لكني قبل ذلك، توقفت عند المائدة المجاورة وسألت أم الطفل إذا كانت تظن أن هذا الوباء الذي ينتشر في مدرسة ابنها يمكن أن يصيب الذكور البالغين.

٤٠

بمجرد وصولي، هذه الليلة، إلى شقتي في النقطة X في مدريد، قمت بقص أظافري، لأنها نَمَتْ كثيرًا. فركت راحتيْ يديَّ بقطعة ألياف طبيعية مقشِّرة. شغلت آلة تمزيق المستندات ومزقت بعض الأوراق. مسحت بصمات أصابعي عن بعض الأشياء وعن زوايا المنزل. بعد ذلك، وضعت جميع مناديلي في الغسالة، لأنني بدأت بعد ظهر اليوم أعطس كثيرًا، وبدأت أشعر أنني سأحتاج إلى احتياطي كبير منها من أجل الساعات المتبقية في حياتي. بالإضافة إلى منظف أنيوني، أضفت في الغسالة شيئًا من مبيد حيوي مطهر، وقليلاً من مبيض الملابس الرهيفة. في لحظة استراحة قصيرة، أقوم بقياس ضغط دمي، فأجد أن الدرجة القصوى هي مائة وواحد وأربعون ميليمترًا زئبقيًا، ربما لأنني تناولت طبقاً من اللحم. بعد ذلك، أدرت جهاز الاتصال عن بعد. خلال الدقائق الست والثلاثين الأولى لم يسمع أي شيء، وبعدها بدأ يزداد صوت المحادثة التي يبدو أنها تأتي من غرفة النوم...

- بسبب مقالاتك.

- لكن حبيبتي، أنا لستُ يهوديًا أرثوذكسيًا. أنا لا أمتثل إلى أي مبادئ أو شيء من هذا القبيل.

- لكنك تكتب عنها.

- إنها مجرد هواية.

- واسمك العائلي.

- أجل، مرَّ عبر الأرجنتين وعبر هجرات لا تحصى. وأعيد مزجُه. في الحقيقة يا ميلاينا، لا أتصور أن تكون هناك أي منظمة نازية تود قتلي.

- حسنًا، أما أنا فلا يخطر ببالي أي شيء آخر. وأنت لا تخبرني أبدًا بأي شيء عن مقالاتك. ربما كتبتَ فيها شيئًا يمكن أن يكون قد أزعج أحدًا ما.

- ولكن لا أحد يقرأ تلك المجلات المتخصصة. أضف إلى ذلك أنها مقالات عن التقاليد والثقافة، من سيهتم بذلك؟ صدقيني، يمكن أن تزعج يهوديًا صعب المراس أكثر من أي راديكالي من النازيين الجدد.

- إذن، إنهم اليهود.

- حسنًا، دعينا من هذا الآن. أعتقد أننا صرنا نقول مجرد ترهات.

- تقولها بصيغة الجمع، لكنك تعتقد أنني وحدي من تقول ترهات.

- سأحضر سلطة من براعم الخس والجرجير... مع الجوز والتمر وثلاثة أنواع من الجبن. ما رأيك؟

- والآن أنت تغير الموضوع.

- كاممبرت، وجبن بارميزان وجبن ماعز بالكراميل.

- تبًا لك.

- آه، وبضع قطع من الكمثرى الحلوة. قولي لي: هل تحلو لكِ؟ يمكنك أن تبدئي بفتح زجاجة نبيذ إذا أردتِ، وإعداد مائدة التلفزيون. في الخزانة وضعتُ احتياطًا قنينة من نبيذ «Campillo» يعود لسنة ستة وتسعين.

[ثم تتوقف المحادثة، ويسمع وقع خطوات وأصوات في المطبخ. في الصالون، بدأ يصدر صوت امرأة، دافئ وجذاب، مصحوبًا ببيانو وقيثارة سمعية، بحجم يكفي ليغمر شقتي. الموسيقى حزينة لكنها متفائلة. أتنقل في صالوني دون أن أعرف ماذا أفعل، دون أن أقرر أخيرًا هل أقوم بتحضير شراب ساخن؟ أم أترك جانبًا أشيائي الروتينية وإلى الأبد؟ في مطبخهِ، يبدو أن السيد بلايستين يحدث نفسه، ويكرر ميكانيكيًا كل خطوة مما يفعله. لقد فقدتُ عدّة الدقائق المنقضية، عندما بدأت محبوبة هدفي في همهمة الأغنية التي تمَّ تشغيلها في

تلك اللحظة، وعندما مرت بالقرب من الميكروفون الموجود في مصباح الصالون، تقول:

أنا جالسة هنا في انتظارك

لتأتي إلى البيت وتثيرني.*

وفمها قريب جدًا من الجهاز وبصوت هامس لدرجة أنه يجعل وجنتيَّ تحمران. أشعر بعدم الارتياح لدرجة أنني قررت مغادرة الغرفة، والدخول إلى غرفة الغسيل، ووضع المناديل في المجفف، وإيلاء انتباهي الكامل لعملية التجفيف، ثم البدء في كيّها في المطبخ. بعد بضع دقائق، استأنفا المحادثة مرة أخرى، لكنني بالكاد أستطيع سماعهما].

- هل اخترتِ نبيذًا؟

- نعم، ذلك الذي قلته.

- هل فتحته؟

- لا أستطيع بيد واحدة. بسرعة نسيتُ انخلاع عظمي...

- آسف، حبيبتي، هذا صحيح. لكن يمكنك الضغط على الزجاجة تحت إبطك وفتحها بالأخرى؟

- لا، لأنها اليمنى.

---

* بالإنجليزية في الأصل:

I'm just sitting here waiting for you
to come on home and turn me on

- حسنًا، لا يهم. الآن، يجب أن ننتظر حتى يمتزج قليلًا بالأكسجين.

- ألم تقل إنه لا يهم؟

- لا يهم. هل نفتحها بآلة الفتح؟

- حسنًا.

- ما يحصل لكِ يا ميلاينا هو أنكِ مضطربة قليلًا. هذا عادي، لا عجب. لقد تسلل إلينا شخص غريب حتى غرفة النوم.

- واو، هذا المجنون سيصبح، الآن، هو الحل الذي تراه لكل شيء.

- أرأيتِ؟ أنتِ مضطربة.

- لا تخلط الأمور... ماذا لو كان الأمر يتعلق بعملك؟ يمكن أن يكون شخصًا له علاقة بعملكَ.

- ماذا تقصدين؟ يمكن أن يكون أحدَ مَرْضاي؟ أنا ليس لديَّ مرضى خطيرون.

- أنت طبيب نفساني. كل الناس يكرهون الأطباء النفسانيين.

[عندما أعود بجانب جهاز الاستقبال لأستمع، تخفت المحادثة من جديد. يسمع الآن ضجيج أدوات الأكل والأواني لفترة من الوقت، دون أن تقاطعه ولو كلمة واحدة. أفترض أنهما سيجدان تفسيرًا لصمتهما، أما أنا فليس لديَّ طريقة لفعل

ذلك. ثم يقوم أحد بتشغيل التلفزيون. يسمع برنامج حوادث، وقد قتل شاذ بيدوفيلي طفلة صغيرة. ثم يقول السيد بلايستين]:

- غدًا سآخذ الأظرف الفارغة التي وصلتني إلى الشرطة، لعلهم يعثرون على بصمات أصابع، أو حمض نووي، أو شيء من هذا القبيل.

[ثم لا شيء آخر، فقط التلفزيون].

٤١

طوال سنوات عملي في هذه المهنة، تعلمت بعض المبادئ التي يجب على كل قاتل محترف أن يلتزم بها:

لا تعمل أبدًا بدون قفازات، خاصة إذا كانت بصمات أصابعك مسجلة لأنه سبقت إدانتك نظرًا لتهورك ولقتلك امرأة عجوزًا بمثقاب لتكسير الثلج في محطة مترو أنفاق. زد على ذلك، أنَّ سطح العالم الخارجي مليء بالفيروسات والبكتيريا التي ترغب في العثور على مأوى دافئ ورطب ومعزول، يمكنها أن ترتاح فيه وتتكاثر.

لا تضع أبدًا لعابك على ظهر طابع بريدي، أو على السطر الذي تغلق به الأظرف الفارغة التي ترسلها لهدفك لتثير اختلالًا في توازنه العاطفي. تحليل عادي للحمض النووي يمكنه أن يكشف علاقتك المباشرة بالأحداث. ثم إن اللاصق الموجود على الطوابع والأظرف يحتوي على مادة اللاتكس، وأنا أعاني من حساسية من مادة اللاتكس، وفي جميع الحالات إن مذاقها مقرف. وإن كان يبدو أمرًا لا يصدق، فقليل من الماء العادي

سيكون كافيًا للقضاء على هذه العادة غير السارة والمنتشرة.

لا تكتب أبدًا عناوين الأظرف ولا التهديدات بالموت بخط يدك. يمكن للمتخصصين التعرف عليه بسهولة؛ اللهم إلا إذا كانت لديك، مثلما هو الأمر بالنسبة لي، معرفة واسعة بالخطوط تمكنك، بالإضافة إلى التعرف على أي نوع من الكتابة، من تقنية مطلقة في تغيير الخط، بل في الكتابة بيد غير التي تستعمل عادة في الكتابة.

لا تحتفظ قط بالوثائق المتعلقة بتقنيات القتل وفنونه في خزائن ملفاتك المشتركة، احرص على الاحتفاظ بها في خزائن الملفات المعدنية المحمولة، على شكل حقائب، في مكان خفي ما؛ مثلًا، خلف القعر المزيف لخزانة غرفة نومك. من المستحيل أن تعرف في أي لحظة ستقتحم، بكل عنف، قوات أمن الدولة منزلك.

لا تقتل أبدًا من أجل المتعة، مهما بلغ إزعاج الناس لك في مترو الأنفاق، أو في سوق الخردوات، أو في مكاتب الإدارة العمومية، مهما بلغ احتقارهم لك بسبب مظهرك المختلف، ونوع هندامك، وطبعك الصموت، وروحك الحساسة والحزينة، وأحيانًا نظرًا حتى لسوء تصويبك لسلاحك. إذا قتلنا من أجل المتعة، أوشكنا على فقدان الرصانة والتوازن الضروريين للأداء السليم لتقنيات المهنة وفنها.

لا تستمع أبدًا لأخيك التوءم الطفيلي وأنت تقوم بعملية

الخنق أو الطعن أو الدفع أو التسميم أو الجزع أو الصفع أو الضرب أو إطلاق النار على هدفك. سوف يُربكك الأُنَيْسِيَان الذي يعشش على كتفك.

لا تتأثر أبدًا بالدم. مهما كثر، ومهما انتشر، فالدم في حد ذاته ليس جيدًا ولا سيئًا، إنه رطب، أحمر، ساخن، لكنه ليس جيدًا ولا سيئًا إلا إذا كان دَمَكَ. لا داعي لشعورك بالدوار عندما ترى الدم، فلا داعي لسقوطك على الأرض، والبقاء هناك فاقدًا للوعي حتى يدعو شاهد على جريمتك سيارة الإسعاف، وتملأ الأرجاء زعيق صفارات الإنذار وشاحنات بيضاء، وسيارات زرقاء. ولا داعي للاعتقاد بأن الدم دمك وأنت ليس عليك أي جرح، بل وتراه يتدفق من جسد آخر. بالتأكيد، لا داعي على الإطلاق لاستنتاج أن هذا الدم هو دمك يتدفق من جرح شخص آخر.

لا تستخرج أبدًا قلب هدفك، أو أي شيء آخر من أحشائه، مهما بلغت القيمة التي تعتقد أنه يمكن أن يكتسبها في السوق، إذا كنت لا تريد ترك أثر ظاهري يؤدي إلى اعتقالك الفوري. وجود عضو من أعضاء ضحيتك في منزلك أكبر دليل محرج على إدانتك.

لا تخبر أي شخص بأي شيء على الإطلاق عن حرفتك. وإن كنت تعتقد أن لديك صديقًا وفيًا يمكنك الوثوق به، فسيكون لديه هو أيضًا صديق أو صديقان يثق بهم، ولن يتمكن

من عدم إخبارهم بمثل هذا السر المثير، وهؤلاء سيكون لهم أصدقاء، ولأصدقائهم أصدقاء، وهكذا إلى ما لا نهاية. في مدينة بحجم مدريد، سيكون١,٧٦٩أ٨٧ يومًا كافيًا لجميع السكان ليعرفوا أنك قاتل محترف ما زلت ممارسًا؛ ناهيك عن أنه في عملية النشر هذه، لا يمكن ألّا يكون هناك أي فرد من قوات أمن الدولة، أو شخص معدل فضوله أكثر من الباقين، أو ربما لديه حتى إمكانية الوصول إلى وسيلة من وسائل الإعلام. القاعدة العامة التي ينبغي اتباعها هي عدم الكشف عن أي شيء ولو لأفضل صديق. أو، للزيادة في الأمن أكثر، من الأحسن ألا يكون لنا أي صديق.

٤٢

١٢:١٦ صباحًا. محاولة قتل فاشلة مع اضطراب نفسي عابر.

أنا جالس على السلالم الاحتياطية في مبنى إدواردو بلايستين، وأعلم أن حكايتي دائرية. لقد لاحظت ذلك للتو ورأيته بوضوح شديد. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، لأن حكايتي جزء من حكاية أكبر. أكبر وأعلى بكل المعاني، تلك الحكاية التي نكتبها مرارًا وتكرارًا في حيواتنا، نحن الملعونين المصابين بوصمة سوء الحظ. لهذا السبب أدركت لتوي أن الجهود التي أبذلها لقتل بلايستين يبدو أنها لا توصل إلى أي مكان، وكأنني محكوم بأن أحمل صخرة إلى قمة جبل وكلما أوشكت على إيصالها، تدحرجت الصخرة إلى أسفل، حتى أعماق الفج. كما لو هويت من مكان آخر حتى سقطت على وجهي وسط مهزلة. عيناي مغمضتانِ، يداي تضغطان على وجهي، ورأسي بين ساقي، وفي هذا المستوى أشعر بالخجل من أن أقول إنني واجم، مرهق ومذعور، وقد خارت قوتي.

لكن الأمر هكذا. وإذا كنتُ قد تلمستُ هذا الركن للاختباء فيه، في الدرج الثانوي لمبنى السيد بلايستين، فذلك لأنني آمل أن يقتصر الجيران أنفسهم على استخدام المصعد أو، في حالة كونه معطلًا، استخدام الدرج الرئيسي، وألاّ يأتي أحد ليزعجني هنا، طالما أنني مختبئ وأعزل، ولا أجرؤ حتى على فتح عيني مرة أخرى، خائفًا من هذا المرض الجديد المفاجئ والنوبات الشديدة التي تهاجمني منذ بضع ساعات.

هذا الصباح، عندما استيقظت، اعتقدت لمدة ثماني عشرة دقيقة أنني، أخيرًا، قد توفيت وإلى الأبد. كنت مستلقيًا على ظهري على سريري المفصلي، وعندما فتحت عيني للمرة الأولى، وصرت أرى ضبابًا رماديًا أبيض أينما نظرت. لم يفاجئني أبدًا كوني، أخيرًا ميت، وإنما كنت أتساءل: ما المفروض أن أفعله بقية حياتي في هذه الحافة القطنية الوسخة؟ ومع ذلك، لاحظت، بعد فترة، أن أذني ما زالت تدرك الأصوات المعتادة في منزلي، وفي نفس الوقت ما رأته عيني لا يتوافق مع غرفة نومي ولا مع أي شيء يمكن لأي إنسان التعرف عليه. عندما دقت ساعتي البيولوجية الدقيقة الثامنة عشرة وأنا في حالة سباتي تلك، بدا لي أنني رأيت ذيل طائرة صامتة تخترق قبو الضباب، وعلى الفور انطلق طائر صغير من الفراغ باتجاه وجهي مباشرة، فقفزت ثم انبعثت. في حركة انعكاسية، أدرت رأسي يسارًا بقوة، ثم اندفع كل الواقع إلى أعلى، غامضًا بسبب عنف الحركة نفسها، وعندما أردت أن أفهم ما يحصل، وجدت

نفسي وسط صالون سيد كان يشاهد التلفاز مرتديًا قميصًا داخليًا، ولم يزعجه في شيء سقوطي في منزله. وحيث إنني ما أزال مستلقيًا في وضع أفقي، رغم أن رأسي مدار إلى اليسار، عندما انتبهت إلى أنه ما يزال بإمكاني الشعور بلمسة وسادتي على خدي، أردت الجلوس، فاندفع الواقع كله، مرة أخرى، دون أن يترك لي هدنة، هذه المرة نحو الخلف، والأسفل، واليسار، وكأنني في عربة أفعوانية. عبرت عشرات القاعات والغرف، بجدرانها وأرضياتها وأسقفها وأنابيبها وحتى أعمدتها الرئيسية، عبرت شارعًا في الهواء وواجهة وبضع غرف أخرى، حتى استقريت في غرفة نوم فارغة، سريرها غير مرتب ونوافذها مفتوحة. استطعت أن أرى، في المرآة التي على جدار غرفة النوم، واجهة عمارتي منعكسة من خلال النافذة. وأنا ما زلت أشعر في كل لحظة بدفء السرير تحت فخذيَّ. جعلني رد فعل غريزي آخر أستدير لأتيقن من أن ما تراه عيناي في المرآة كان صحيحًا، لكن ذلك كان خطأً، لأن كل شيء تحطم مرة أخرى. وفجأة وجدت نفسي هذه المرة فيما أفترض أنه عمارة على الجانب الآخر من هذه المجموعة من العمارات. في غرفة هذا الطابق الآخر كثيرون من الناس يتجادلون فيما بينهم. أدركت ألا أحد منهم رآني، وخطر على بالي أن أغلق عيني، وبالفعل تأكدت من أنني لم أكن أسمعهم على الإطلاق. كان شعوري بالدوار وذهولي شديدين لدرجة أنني كنت بحاجة إلى قضاء وقت طويل ضاغطًا على عينيَّ، لأعود للشعور بالراحة في غرفة نومي من جديد، والكف عن

الاهتزاز واستعادة بعض الاتزان. أخذت نفسًا عميقًا وقمت بتمارين تنفس مختلفة. فتحت عيني مرة أخرى، ووجدتني في ذلك المنزل محاطًا بأولئك الغرباء. أغلقتهما، فوجدتني في غرفة نومي. استدرت ببطء إلى اليمين وعينايَ مغمضتان، وفتحتهما بعد أن أصبحت جامدًا كليًا، وهناك كنت، واقفًا في الهواء، في الساحة المنعزلة، بنافورتها الحجرية ومارَّتِها، من حي X في مدريد. على الرغم من دواري الشديد، علمت أنه لا يوجد تفسير آخر: لسبب غريب، ربما بسبب إصابة رضحية في جزء من القشرة البصرية الأولية للفص القذالي، يوجد بصري على بعد مائة متر عني على الأقل. ومنذ وقت مبكر من هذا الصباح، وحتى هذه اللحظة بالذات التي أجد نفسي فيها جالسًا على الدرج الاحتياطي لعمارة إدواردو بلايستين، يهاجمني مرض اضطراب معالجة البصر العصبي. اضطراب متفاقم، لا يمكن تفسيره، فعال ومرعب. غير مصنف.

لو لم أكن متأكدًا تمامًا من أن اليوم سيكون آخر يوم لي على وجه الأرض، لو لم أكن مقتنعًا بأن يوم الأحد هذا يمثل فرصتي الأخيرة لإنهاء حياة بلايستين -هذا إذا كان لدي حقًا احتمال واحد، مع أنه من الواضح أن كل هذا ليس سوى مجرد مزحة قاسية أخرى من النجوم- لظللت هذا الصباح، بلا شك، مسترخيًا في سريري، أنتظر أن تتبدد أعراض هذا التغيير الجديد، أو، في حال فشل ذلك، أن ينقذني الموت الدافئ والمظلم من هذا الألم ومن كل الآلام الأخرى التي تحاصرني.

رغم أن الموت، وهو الغامض بطبعه، لا يعرف شيئًا عن قواعد الالتزام بالمواعيد.

على كل حال، بصفتي محترفًا جيدًا، فإن أول شيء سألت نفسي عنه في الساعة الأولى من هذا الصباح، بمجرد أن تعافيت من خوفي الأولي، كان حول حجج الغياب القانونية المختلفة التي يمكن أن يوفرها لي هذا الاضطراب، إذا سنحت الظروف السعيدة بأن يُرتكب هذا القتل. ورغم أن قانون العقوبات في هذا البلد، في معرض إشارته إلى هذا العذر يعدّه اضطرابًا نفسيًا عابرًا، وكما هو واضح، فإنَّ اضطرابي ليس نفسيًا ولا تخيليًا، وليست له أي علاقة بما هو معروف عامة بالاضطراب العقلي، فمن الصحيح أنه يتطور على المستوى العصبي، وعلى هذا سيكون من العدل أن تعدّه أي محكمة قمينًا بإعفائي من كل مسؤولية جنائية. وبينما كنت أفكر في هذه الأمور، تمكنت في الوقت نفسه، وبصعوبة، من الدخول إلى مطبخي دون فتح عينيّ، متحسِّسًا الجدران والأثاث والأواني، لأحاول إعداد وجبة فطوري. وأثناء أمساكي بسكين الخبز، استنتجت مدى سهولة اغتيال بلايستين وكأن ذلك بمثابة قطع شريحة لحم في مطعم في شارع كلاوديو كويلو.

لكن، في بعض الأحيان، تبدو الخطط أسهل بكثير من الناحية النظرية مما هي عليه في التطبيق. لم أكن أستطيع أن أشك في أن الانتقال من منزلي إلى هنا هذا الصباح سيكون عملًا بطوليًا بقدر ما هو مؤلم: بسبب سذاجتي، اعتقدت أنه

يمكنني التحرك مغمض العينين، لأتجنب تشتيت انتباهي بسبب رؤية الصور الخاطئة، دون أن أجعل في حسباني أن صخب الناس وضجيج السيارات سيجبرني مرات عديدة على فتح عيني، وأن تلك الفوضى ستتساقط عليّ كالرذاذ. أول شخص عبرني سيدة بدينة كانت تمشي في اتجاهي في شارع مجاور، أو ربما كنت أنا من عبرتُها، وبخوف واشمئزاز استطعتُ أن أرى من داخل طبقات أنسجتها الشحمية أعضاءَها وهي تنبض، وسوائلها وهي تنتشر، وحتى سرطانًا ينمو في رئتها اليمنى ويقرّح غشاءها المخاطي. بعد ذلك، وبينما كنت أحاول القبض بيدي على قلبي الذي كان على وشك الانهيار، هاجمتني العشرات والعشرات من المَرْكَبات الشبحية بجميع أنواع المحركات والهياكل المعدنية والمفروشات، وفي صناديق أمتعتها حاجيات وممتلكات متنوعة. حين لا أتخذ احتياطاتي، كنت أصطدم برأسي مع قوى غير مرئية حتى أسقط على الأرض؛ ثم تساعدني قوى خفية أخرى على النهوض وتجعلني أتكئ على أسطح هي الأخرى لا يمكن الإمساك بها. وإذا خفضتُ عيني إلى الأرض سهواً، أغرق في أنفاق وسائل النقل العمومي للضواحي، ليتم جرفي على الفور من قبل قطارات المترو التي لا نهاية لها. في النهاية، جعلتني رحلتي أشعر وكأنني السيد عوليس في رحلة عودته إلى موطنه إيثاكا، ومثل الدكتور فاوست في نزوله إلى الجحيم نفسه، لقد انجرفت افتراضيًا وضُربت بقوة، رأيت المئات من الكائنات الحية من الداخل، وأماكن مظلمة، وغرفًا منسية، وأسرارًا

خفية، وأفعالًا خشنة، وآفاقًا بغيضة، وأنابيبَ وبالوعاتٍ، كما هو الحال في أحشاء «ألف» فاسدة، لقد رأيتُ الجزء الداخلي لكل الأشياء التي يمكن للمرء أن يلتقي بها من النقطة X من جنوب غرب مدريد إلى الحي الموجود في وسط سالامانكا.

الآن، وأنا جالس هنا، أحس بالضرر الذي تسببه هذه الدرجات في كليتيَّ وعظامي الضعيفة، ورأسي بين ساقيَّ، ويداي ضاغطتان على وجهي، وعيناي مغلقتان، لم أتعافَ بعد من الرعب بما يكفي حتى أفتحهما مرة أخرى، وأنظر إلى أعلى، لأرى بدقة واضحة الجزء الداخلي لشقة بلايستين، وأعلم ما يفعله هدفي وعشيقته في هذه اللحظة. لكنني أحضرت معي جهاز الاستماع، في حقيبة مع أدوات أساسية أخرى، لذلك فقد وضعت سماعة في أذني اليمنى، وقمت بتوصيل الجهاز، وصارت تصل أصواتهما إلى هذا الظلام المفروض عليّ...

- توقفي، إذن، عن لوم الأشياء.

- وأنت، ألا تفعل ذلك؟

- أعتقد أنني لا أفعل.

- لكن، أنا أعتقد أنكَ تفعل ذلك طوال الوقت. لكنك أكثر فطنة. وتتنازل أكثر.

- على العكس من ذلك، ما أعتقده أنا يا ميلاينا، هو أنك مستاءة من كل ما حدث هذه الأيام.



- أترى؟

- أرى ماذا؟

- فعلتَ ذلك للتو. لقد فعلتها مرة أخرى.

- قلتُ لك فقط إنكِ مستاءة.

- طبعًا، لأنك لا تستطيع الاعتراف بأني على حق ولو مرة واحدة. لذلك عليَّ أن أتأثر بشيء لا يسمح لي بإدراك الواقع كما هو. ولهذا لا تتوقف عن تكراره ذلك.

- طيب، حسنًا، لن أقولها بعد الآن.

- نعم. حاول التوقف عن العمل ولو لمرة واحدة.

- ماذا؟

- لا أحب أن تخضعني لتحليلاتك النفسية.

[يُسمع صوت خطوات. يُفتح باب، ومزيد من خطوات في ممر. لو كان صحيحًا أن عشيقة بلايستين يتملكها، في هذه اللحظة، اضطراب لا يسمح لها بإدراك الواقع كما هو، لكان يمكنني المبادرة إلى مهاجمته، ووضع حد لجميع مشاكلنا مرة واحدة وإلى الأبد، وكنتُ سأستخدم اضطرابها كدفاع أو لطلب التخفيف للعقوبة. لكنها، على الأرجح، ليست على علم بهذه المعلومات. تسمع خطوات مرة أخرى. حركة أشياء. يبدأ بلايستين في الكلام، ولكن حينذاك دَوَّت فرقعة باب].

- توقفي عن قصف الأبواب! سوف تحطمينها!

[صمت. مزيد من حركات أشياء. ومن جديد بلايستين]:

- هل تريدين أن تجعليني أتحدث من وراء الباب؟ لا أعتقد أن هذه محادثة، وأننا يمكن أن نتحدث هكذا.

[هدوء. وباب يفتح].

- لا شيء تقريبًا يمكن أن يستمر هكذا.

- ربما معكِ حق.

- نعم.

- إذن، يجب القيام بشيء ما.

- يجب القيام بشيء ما.

- هل تعلمين شيئًا؟ لقد بدأت أشعر بالضيق حقًا.

- أنا متعبة جدًا يا إدواردو.

- حسنًا، صرنا اثنين.

- نعم.

[مزيد من الصمت. فكرتُ لحظة في أنني لا أود أن أموت هنا وسط الظلام والصمت. ليجدوني بعد -من يدري كم ساعة أو يوم- منطويًا على نفسي، مرتديًا معطفي، على الدرج

الاحتياطي. بحركة تكاد تكون غير واعية، أرفع رأسي وأفتح عينيّ. وبمجرد فتحهما أجدني في شقة بلايستين. ولكن، لأنني أنظر من أسفل، أرى جسد هدفي وعشيقته في صورتين مقصرتين. أحاول أن أتموقع بشكل أفضل، ظانًّا لثانية أن بصري يعمل بشكل طبيعي داخل أبعاد الفضاء، أرفع رأسي قليلًا، وفي اللحظة التي أردتُ أن أدرك فيها الأمر أجدُني داخل بلايستين. عبرتُ سرواله، ومعيه الغليظ، وسافرت عبر أمعائه، واستقريت وسط حموضة معدته. مستسلمًا أغمضتُ عينيّ مجددًا، وعدت إلى الظلام والصمت. بعد سبع دقائق، يُسمع]:

- أهذا كل شيء؟

- ربما قد يكون كل شيء.

[أفترضُ أنه من الطبيعي أن تقوم العلاقات بين الرجال والنساء على الصمت. بعد كل هذا الوقت وكل هذه التجارب المشتركة، سيعرف كل منهما كيف يفسر بدقة صمت الآخر. مسحَ واحد منهما مخاط أنفه. ثم سُمعت خطوات متسارعة في الممر. أحدهما يدخل إلى غرفة النوم ويسقط بقوة على السرير. وهناك ينفخ من أنفه بشكل متكرر فيما أتخيل أنه سيكون مناديل ورقية. في عُليَّة الغرفة الأخرى يتجدد صوت الأشياء. أفترض أن بلايستين يقوم بتطهير غرفة التخزين، وتنظيف الزوايا التي يتعذر الوصول إليها حيث تنمو مسببات الأمراض والفيروسات والبكتيريا والطفيليات والعفن، وتتآمر وتؤثر بلا

استراحة. ثم مرة أخرى خطوات. صوت أشياء من جديد. في غرفة النوم، مزيد من صوت الغشاء المخاطي للأنف. مزيد من الخطوات في الممر. الآن هما معاً في الغرفة. تستمر الأشياء في الاهتزاز والهمس، لكن لا تسمع أي كلمة. تمر ست عشرة دقيقة حتى تنطلق الخطوات مرة أخرى في الممر المؤدي إلى المطبخ. أفترض أن بلايستين يقوم بتعقيم أواني الأكل، الكؤوس والصحون، بالحرارة الجافة والفينولات السائلة. ثم خطوات، شيء يُجرُّ، أفترض أنه ليس جسداً. ومن جديد دوي باب. نظرًا لأنه الباب المؤدي إلى الشارع، فقد توقفت عن الاهتمام بما يصدره جهاز الاستقبال عن بُعد].

أنظر إلى أعلى، أتنفس نفسًا عميقًا، وأفتح عيني، لأنني بحاجة إلى معرفة إلى أين يذهب السيد بلايستين؛ حتى أتمكن من ملاحقته ووضع حد لحياته إلى الأبد. أنا في القسم الأخير من ممر الشقة، ملتصق بالأرض، وبانحناءة قسرية أستطيع أن أرى زاوية من السرير المزدوج. أركز نظري على السرير وبالكاد أتحرك وبحذر شديد، لأنني أخشى مفاجأة الآنسة ميلاينا في موقف غير محتشم. في تلك اللحظة، نقل جهاز الاستماع صوتًا أنفيًا رجوليًا، وبدهشة، اكتشفتُ أن إدواردو بلايستين قد انسكب هناك، محاطًا بحشد من كرات المناديل الورقية، تتملكه نوبات فواق صغيرة غير مناسبة.

لا وقت لدي أضيعه. أستمد القوة من ضعفي، أضغط على بطني بيدِي لتخفيف آلام الأورام السرطانية في أمعائي الدقيقة،

أحاول إخفاء خوفي، أجلسُ وعينايَ مغلقتان، وأبدأ في صعود الدرج للقضاء على بلايستين في أسرع وقت ممكن. أحمل في حقيبتي سكين لحم بشفرة فولاذية طولها تسعة عشر سنتيمترا ومقبضًا من خشب الورد. أصعد ببطء شديد، لأنني أتقدم كأنني أعمى وعليَّ أن أحصي الطوابق و»الميزانين»، وقدمي اليمنى تؤلمني عند الضغط عليها، وعظم الفخذ أيضًا، كما أنني عانيت من العديد من نوبات السعال هذا الصباح، ولأنني خائف من التسلية، ومن أن أفتح عيني، وأجد نفسي في الهواء أو داخل أحد ما. أثناء صعودي، سمعت عدة مرات أصوات إناثٍ عبر الفراغ الموجود بين السلالم، قادمة من الطوابق العليا. امرأتان تتجادلان. تتهمان بعضهما. تتحدثان عن الهجر. عن الجبن والشجاعة. تخبر إحداهما الأخرى أنها ستكون سعيدة بعدم رؤيتها مرة أخرى. تجيب الثانية بنفس الشيء. تلومان بعضهما مرة أخرى. تطلب إحداهما من الأخرى آخر خدمة. ولأنني لا أفهم شيئًا، فقد أدرت رأسي في اتجاه الدرج، وبنظرة سريعة استطعت أن أرى في منظور عمودي ومن أسفل الآنسة ميلاينا وأخت بلايستين، لورا بلايستين. أخت هدفي امرأة غليظة، دون أن تثير انتباهًا بوزنها الزائد، ترتدي تشكيلة من تنورة وسترة بلون عنابي، وقميصاً بكشكش من الدانتيل، وعقدًا من اللؤلؤ يضغط على لُغدها وتجاعيد رقبتها. ما أن استويتُ واقفًا حتى انتهت المحادثة، ثم تسمع طرقات أخرى على الأبواب. أغمض عيني مرة أخرى وأستمر في الصعود. في النهاية، أدخل الطابق الخامس من المبنى، مع الحرص على عدم وجود

أحد، أفعل ذلك بتحسس الجدران. عرفت الباب الأول الذي هو باب شقة أخت إدواردو بلايستين، وعلى بعد أمتار قليلة يوجد، وجهًا لوجه، الباب الثاني، باب هدفي. بعد أن أصبحت أمام الباب، بعدما يقرب من ثمانٍ وعشرين دقيقة منذ أن بدأت الصعود، ممسكًا بالمقبض للحفاظ على توازني، أُخطئ وأفتح عينيّ، كما لو كنت أؤكد أنني تجاوزت الجزء الأخير من اختبار. وهكذا، بالفعل، أرى باب السيد بلايستين، صلبًا، معتمًا، عليه الرقم «٥» والحرف «B» باللون النحاسي الأصفر على السطح الخشبي، وأدرك أن أعراض اضطراب المعالجة الحسية العصبية في نظام تشغيل الرؤية لديَّ قد تبددت، دون أن تقتحم خطتي عقبة التحول إلى مجرد محاولة.

٤٣

محاولًا عدم إحداث أي ضوضاء، استخدمتُ مادة تشحيم من الجرافيت كنت أحملها في حقيبتي لفك أقراص ومسامير قفل باب إدواردو بلايستين. استخدمت مجسًا لفحص طول دبابيس الأمان والمسافة بينها، وفضلتُ استخدام فاتحة أقفال ذات أسنان بدلاً من مثقاب مخرّم. أدخلتها في ثقب المفتاح، وقمت بتمريرها برفق من خلال مسامير القفل عدة مرات، بمساعدة أداة شدٍّ، إلى أن تمكنت من قلب طبل القفل وفُتح الباب.

دخلت الشقة في حالة تأهب قصوى، لأن بلايستين ربما غادر غرفة النوم. وجدت على طاولة المدخل رسالة مكتوبة بخط اليد:

إدواردو:

لم أعد أحتمل. احتفظ لنفسك بتوبيخاتك وبكلماتك ذات المعاني المزدوجة الدقيقة، دع لنفسك فطنتكَ والسِّباب

المضمَر الذي تخفيه جُمَلُك. احتفظ بتحليلك المرهق لكل شيء قابل للتحليل والتحليل النفسي. سأفتقد بعض الأشياء، لكن بالتأكيد أقل من تلك التي تعتقدها أنت. كنتَ تقول دائمًا إنه يتعين علينا انتظار مرور الغضب لاتخاذ قراراتنا. كما ترى، أنا لا أفعل ذلك وأنا أكتب هذه الرسالة. **لأنني لا رغبة لي في ذلك**. احتفظ أيضًا بنصائحك. حتى الجيدة منها. أحياناً تحب الواحدة منا أن تخطئ. احتفظ لديكَ بآلة تحضير قهوتك Saeco Talea Touch، وطاحونتها الخزفية اللعينة واستخدامها الدقيق للغاية كل صباح. احتفظ بغطاء مائدتك الساتاني وبأريكتك المريحة عاجية اللون اللذين يتلوثان بمجرد النظر إليهما. احتفظ بأرضياتك المصنوعة من خشب الجوز وبحرصك على عدم القدرة على التجول في البيت بأحذية الشارع. احتفظ حتى بتلفازك باناسونيك العملاق، وقنينات نبيذك المختارة، وكبد البط الدهني شبه المطبوخ «مالدون»، وكافيار بيلوجا الإيراني، وعجينتك الطازجة المصنوعة يدويًا، وبلحومك الأرجنتينية المستوردة. لقد تعلمتُ أن ذلك كله لا يمنح السعادة. احتفظ بكل شيء ما عدا سيارتك BMW x5. حتى حقائب سامسونيت لن تجدها في مكانها، لقد استخدمتها لحمل أغراضي في سيارتك. وبالمناسبة، إذا كنت ستشتري مجموعة حقائب أخرى من المركز التجاري كورت إنغليس في شارع غويا، ثم تنزل بعد ذلك إلى السوبر ماركت، فأنا أضع لك قائمة بالأشياء الأخرى التي قد تحتاجها:

خروف مذبوح	سفرجل
مناديل ورقية	بطاطس حلوة
عوازل طبية	ثوم المعمر
مزيد من المنادل الورقية	سمك الأبرميس
فاليوم	دجاجة
مزيد من المنادل الورقية	لحم جدي

ميلاينا كوله
التي لن تكون لك أبدًا.

من بين كل الملاحظات التي تركتها عشيقة هدفي على طاولة المدخل قبل مغادرتها، شيء واحد فقط حيّرني حقيقية: حروفها ذات الزوايا، والشفرات الصاعدة (في حروف الباء «b»، واللام «l»، والتاء «t») الواضحة جدًا مقارنة بمتوسط ارتفاع النص.

٤٤

منذ نعومة أظفاره، وقبل نمو لحيته الطويلة والكثّة، كان ليون نيكولايفيتش تولستوي، مثلي، مثل آخرين كثيرين، رجلاً يحاصره سوء الحظ. ابن نيكولاي إيليتش تولستوي، سليل عائلة الكونتات تولستوي، الذين ورثوا دماءهم الأرستقراطية مع القيصر بيتر الأول العظيم، والأميرة ماريا نيكولايفنا فولكونسكي، سليلة أمراء فولكونسكي القدامى، تَيَتَّم كما هو معلوم من أبيه وأمه منذ صغر سنه، وتُرك يصارع وحيداً اضطراباته العصبية الأولية وخسة إخوته الأربعة وسفالتهم. فكبارهم كانوا يستغلون ضعفه عندما يخرجون للعب، بعد الأكل، ويجبرونه على البقاء جالسًا في زاوية في المنزل حتى اللحظة التي يتوقف فيها عن التفكير في دب أبيض. وهناك كان السيد تولستوي يظل لساعات، خلال الأمسيات الجليدية في منطقة التتار، يفكر بشكل قهري في دببة بيضاء دون أن يعرف كيف يتوقف عن ذلك.

كان المرض والأشباح يلاحقون الروائي الروسي طوال

حياته كلها، رغم عنايته بنفسه، وجولاته الصباحية التي كانت تدوم ساعة ونصف، ونظامه الغذائي الصارم المعتمد على البيض واللبن النباتي. فضعفُ جسده وقابليته الطبيعية للأفكار المرضية، جعلاه يعيش أزمات لا تحصى، لكن رغم تلك الأزمات -أو ربما بسببها تحديدًا- استطاع تأليف أعماله. فقد عانى من آلام روماتيزمية وقرحات غرغرينية وفترات قلق وإرهاق وذعر، وحتى داء سيلانٍ، نتيجة جولاته العاطفية الكثيرة، والتي اعتبرها هو نفسه مرضَ زهريٌّ مدمرٍ. ولم يكن سلوك السيدة صوفيا بيرس زوجته مصدر ارتياح كبير بالنسبة له، لأنها إما كانت تخرج لتجري نصف عارية في الغابة الثلجية، أو تهدد بإلقاء نفسها في بئر، أو بكسر قلبها بمطرقة، أو بتسميم نفسها بالأفيون والأمونيا، وذلك حينما لا يلبِّي لها تولستوي مطالبها أو يتسبب في شيء يكون مدعاة لشكواها. في السنوات الموالية لكتابة آنا كارينينا، بعد انتحار بطلة الرواية، سقط السيد تولستوي في اكتئاب عميق وأبان عن ميول انتحارية متكررة. في رواية لاحقة، **موت إيفان إيليتش**، اجتهد تولستوي في تسليط الضوء على كل الترددات المميزة للمرضى الميؤوس من شفائهم، وعلى لجوئهم اليائس إلى علاج الوباتشيك، والطب التجانسي، والطرق السحرية البديلة، ووصف كذلك الألم الذي يُضاف إلى المرض جراء لا مبالاة الأهل وإهمال الأصدقاء لكل الذين هم مطاردون بالموت.

في الصباح الباكر من يوم ١٠ نوفمبر ١٩١٠، في سن الثانية

والثمانين، هرب ليون نيكولايفيتش تولستوي من منزله الريفي في ياسنايا بوليانا، مرتديًا معطفًا باليًا من الفرو وهو يحمل صندوقًا صغيرًا به ملابس بيضاء ومناديل وبعض الكتب. بدأ معه الرحلة أيضًا الدكتور ماكوفيتسكي، الذي دأب على مرافقته في الأيام الأخيرة، خاصة منذ أن بدأت تزداد اعتلالاته ونوبات اكتئابه. قبل الانصراف، كان السيد تولستوي قد وضع على الطاولة عند مدخل المنزل، خطابًا مكتوبًا بخط يده موجهًا إلى زوجته:

عزيزتي صوفيا،

مغادرتي سوف تُهينكِ، أنا آسف. لكن افهميني، لا يمكنني التصرف بشكل آخر. لا أستطيع تحمل العيش هكذا مزيدًا من الوقت، أحيانًا أقاوم ضدك وأثير غضبك، وأحيانًا أستسلم للملذات والإغراءات التي اعتدتُ عليها والتي تحيط بي من كل جانب. لهذا السبب أفعل ما سيفعله أي شخص عادي في سني: أن ينسحب من الحياة الدنيوية ليعيش في سلام وهدوء أيامه الأخيرة. دعيني أذهب. لا تبحثي عني، ولا تنزعجي ولا تلوميني.

ليف تولستوي

كان الروائي الروسي قد كتب رسالة الوداع التي تحدث فيها عن أيامه الأخيرة قبل عشر سنوات. وقد حملها معه منذ

ذلك الحين، مع أوراق أخرى، في الجيب الداخلي لمعطفه، دون أن يجرؤ قط على استعمالها، رغم أنه سبق له أن هرب من زوجته في مناسبتين سابقتين، وتحديداً منذ أن اتخذ قرار توريث ممتلكاته، وحقوق أعماله للفقراء وليس لأفراد أسرته.

بعد ذلك الهجر، مرت عدة أيام دون معرفة أي شيء عن مكان وجود الهاربَيْن. حتى يوم ١٤ نوفمبر حيث وجد السيد تولستوي نفسه في قبضة ألم شديد في جانب صدره بسبب الجهد الذي بذله. وضع الكاتب يده على صدره، متحسسًا أسفل لحيته الكثّة، فعلم أن ذلك هو المرض الحقيقي الذي سينهي حياته. تملكته الحمى وسعال لا يمكن كبحه، إلى أن أردته أرضًا نوبة التهاب رئوي. بالقرب من ذلك المكان كانت محطة القطار أستابوفو. قام مفتش للسكك الحديدية والدكتور ماكوفيتسكي بنقل السيد تولستوي مغمى عليه -وكأنه رزمة روائي روسي- إلى منزل مدير المحطة. وفي غرفة مظلمة وبائسة، مستلقيًا على سرير صلب مثل أرضية الغرفة، احتضر الكاتب ستة أيام أخرى. قبل وفاته بقليل، وصلت زوجته إلى المحطة، لكن السيد تولستوي لم يسمح لها بالدخول. كانت كلماته الأخيرة:

- يا دكتور ماكوفيتسكي، في الجيب الداخلي لمعطفي أحتفظ بظرف فيه وصيتي. أنا أوكلها لك. أنت وحدك من تستطيع منع صوفيا من السعي إلى إخفائها.

٤٥

١٣:٣٢ زوالًا. محاولة قتل لكن بموافقة الضحية.

منذ دخولي إلى شقة هدفي، لم أسمع أي ضجيج، ولا صوت مناديل في غرفة النوم، ولا أدنى صدىً ينبئ ببعض الحياة في غرف المنزل. أتحرك خلسة عبر الممر الرئيسي، كما سبق أن فعلت في مناسبة أخرى، مع حرص شديد على ألا أعاني من «وهم سبق الرؤية» الذي قد ينجم عن تشابه الظروف. حسب فريق من الباحثين من جامعة ليدز، إنَّ سبعين في المائة من السكان قد جربوا، على الأقل مرة واحدة في حياتهم، ظاهرة الاعتقاد بإعادة عيش شيء ما سبق لهم أن عاشوه. لكن أصلَ وهمِ سبقِ الرؤيةِ يكمن في شذوذ عصبي مؤقت في الدوائر المسؤولة عن الذاكرة قصيرة المدى، يتسبب في تأخر طفيف للعقل الواعي في تلقي البيانات الإدراكية، ومن ثم يدرك العقل اللا واعي محيطه قبل أن يدركه العقل الواعي. وبما أن ضعف قشرتي الدماغية حقيقةٌ مثبتةٌ لا غبار عليها، ولست أشَكِّلُ على الإطلاق حالة إحصائية إضافية، فإنَّ جميع الاحتياطات

قليلة لتجنب معاناتي من هذا النوع من الزيغ العصبي، والذي قد يؤدي إلى اضطرابات أخرى مثل صرع الفص الصدغي أو الفصام نفسه.

أنا الآن أغادر المطبخ ومكتب السيد بلايستين؛ ثم الصالون وتلفزيون البلازما العملاق، والحمام الأول، وغرفة الضيوف وغرفة التخزين التي أخذت ميلاينا من عليتها الحقائب لنقل أمتعتها. أمسك بيدي اليسرى حقيبة أشيائي، التي نظرًا لكونها مصنوعة من البلاستيك، لا تكف عن الهسيس في الهواء، وباليمنى أخرج منها السكين ذات الشفرة الفولاذية التي طولها تسعة سنتيمترات. غرفة النوم صارت على يساري. الباب مفتوح، وأنا أطل ببطء، وسكيني مرفوعة أمسكها بالمقلوب، مثل قاتل، وبدون أي ذريعة تعفيني من مسؤوليتي الجنائية. لكن، لا يوجد أحد في الغرفة.

على اليمين يوجد الحمام الثاني، وهو الغرفة الوحيدة التي يمكن أن يوجد بها بلايستين، إذ أنه، من ناحية أخرى، لا يمكن أن يكون قد غادر الشقة. أمسكُ مقبض الباب بيدي اليسرى، بينما أمسك الكيس بين أسناني، محاولًا ألا أحدث ضجيجًا أو أفكر في الجراثيم والأيدي المتسخة المتعرقة التي ربما سبق لها أن أمسكت بتلك المقابض، والسكين لاتزال مرفوعة على اليمين. أدير المقبض ببطء غير محسوس للعين البشرية غير المحترفة. وعندما استطعت أن أرى الداخل، لمحت بلايستين مغمورًا في حوض الاستحمام. على الأرض بعض شفرات

لم يجرؤ على استخدامها، نظرًا لعدم وجود دم في الماء، وعلبة من الكلوروبرومازين من فئة مائة ميليجرام وأخرى من السينوغان من فئة ٢٥,٠ ميليجرام مفتوحتان. ينتحر الأشخاص العاديون باستخدام الحبوب المنومة العادية، لكن يُلاحظ أن السيد بلايستين، بوصفه طبيبًا نفسيًا، لديه أصدقاء يسمحون له بالحصول على مضادات الذهان.

أقتربُ من حوض الاستحمام دون أن أثق كثيرًا، فأصطدم بالشفرات الموجودة على الأرض، والتي يتردد صداها على الزليج الرخامي الذي يحاكي نسيج الخيزران. أرفع سكيني، في حالة تأهب مثل سِنَّوريٍّ يخاف من شيء غير متوقع قد يحدث. يفتح بلايستين عينيه، ينظر إليَّ، وببطء شديد، وفمه عجيني، يقول:

- هيا اقتلني الآن، بربك. أَنهِ حياتي.

أفهم أنني إذا أنهيتُ حياة إدواردو بلايستين في هذه اللحظة، فيمكنني أن أدلي بموافقته من أجل التخفيف من إدانتي المحتملة؛ وأنه بدلاً من إنهائه بسكيني، سأنتظر فقط أن أراه يموت، في هذه الحالة يكون أقصى ما يمكن اتهامي به هو جريمة عدم تقديم مساعدة لشخص في خطر.

- لا تعلّمني كيف أقوم بعملي.

- حسنًا، قم بعملك مرة واحدة.

لقد أجابني بلايستين، لكنه لا يعرف أنني في الحقيقة كنت أكلم أخي التوءم الطفيلي الذي لا يفوّت أبدًا فرصة يجعلني أشك فيها فيما أفعله، ويمارس عليَّ أكثر الحيل تنوعًا. ولا يمكنه أن يعرف أيضًا أنني لن أجرؤ على التحدث مع هدفي دون استخدام صيغ الاحترام الواجبة. فالإفراط في التقرب لم يكن قط مناسبًا لفن مهنتي.

بعد أن نطقتُ الجملة الأخيرة، بدأ رأس بلايستين يغرق في الماء، وهو الآن تحت سطحه تمامًا. سيكون القضاء على هدفي إلى الأبد سهلًا مثل الانتظار بضع ثوانٍ حتى يموت بالاختناق. لكن مهما فكرت في الأمر، ومهما تأملته، لا أرى أي سبب يُسوِّغ تسلم الأتعاب التي دُفعت لي مقدمًا، منذ أكثر من عام وشهرين، داخل ظرف من ورق الرق مكتوب بحروف ذات زوايا، وشفرات صاعدة واضحة. من الواضح أنه، مهما أغرتني الفكرة، إذا لم أقتل ضحيتي قتلًا فعليًا، فلا شيء يجعلني أستحق الأتعاب التي أحتفظ بها منذ مدة في الخزنة الحديدية الموجودة في بيتي عند النقطة X في مدريد. وأنا رجل ذو أخلاق كانطية.

٤٦

نحن في غرفة الطوارىء في مستشفى غريغوريو مارانيون. أحضرت السيد بلايستين في سيارة أجرة، يمشي بصعوبة متكئًا على كتفي. قبل مغادرة منزله، أجبرتهُ على التقيؤ مهيّجًا بلعومه بسبابتي ووسطاي. ثم حضَّرت له تُرمسًا من القهوة القوية لمنعه من النوم. لم أجد صعوبة في العثور على عبوة قهوة جامايكا «بلو ماونتين» على رف المطبخ، ولكني، في المقابل، كنت بحاجة إلى الرجوع إلى دليل آلة تحضير القهوة «Saeco»، وكلفني تشغيلها سبع عشرة دقيقة من وقتي. في سيارة الأجرة، اضطررت إلى صفع بلايستين اثنتين وعشرين مرة. كان السائق يراقبنا طوال الطريق من خلال مرآة الرؤية الخلفية الداخلية، بعينين مفتوحتين جدًا، لكنه لم يسأل عن شيء هذه المرة.

نحن جالسان بجوار منضدة الطوارىء حيث سيطلبون منا المعلومات. أمامنا امرأة تمسك برجل مسنٍّ من مرفقه، يبدو عليه الدوار.

- أخبريني، ماذا حدث له؟ يقول الممرض، واضعًا رأس قلم

على ورقة، وهو ينظر بالضبط إلى النقطة التي يلمس فيها القلم الورقة.

- هذا الرجل كان يسير على رصيفه، قريبًا جدًا من موقع أعمال بناء، وانفصلت عارضة عن الرافعة وكادت أن تسقط عليه. توضح السيدة.

- ماذا به إذن؟

- سقطت العارضة بجانبه، وكادت أن تضربه على رأسه كله.

- حسنًا، سيدتي. والآن، ممَّا يشكو هذا الرجل؟ أعراض.

- كيف ممَّا يشكو؟ يشكو من أنه كان على وشك قتل نفسه.

- جيد. يقول الممرض ويكتب شيئًا في مطبوعة أمامه. لا تقلقي، سنهتم بالأمر.

- لقد كان الأمر مهولًا -تتابع المرأة- كاد أن يقتل نفسه. على وشك، على وشك أن يقتل نفسه.

عندما أفرغت السيدة والرجل العجوز المنضدة، بدأتُ أمسِك بلايستين من تحت ذراعيه، وباستخدام قوتي القليلة تمكَّنتُ من رفعه عن الكرسي.

- شكرًا -قالها مُهَمْهمًا- أنتَ مثل ثور، سيدي.

- لا داعي لاستفزازي أكثر -قلتُ بجدية- سبق أن أخبرتك أنني لن أقتلك في ظل هذه الظروف.

- أردت فقط أن أقول إنك في صحة جيدة. يا ليتني الآن في صحة جيدة مثلك، مع كل الألم الذي أشعر به في هذه اللحظات...

يحاول السيد بلايستين يائسًا إجباري على إكمال محاولته الانتحارية. لكنني محترف، معتاد على كل أنواع الضغوط، وعندما يحاول استفزازي بالسخرية من مظهري، أو بالشفقة على حالتي الصحية السيئة وأمراضي التي لا تنتهي، فإني لا أهتم به، كما لو أني أصبت بمرض حبسية فيرنيك ولا أستطيع فهم أي شيء على الإطلاق مما يقوله. لذلك فقد اكتفيت بقيادته بضع خطوات إلى المنضدة، على أمل أن يتعافى قريبًا وأستطيع إنهاء حياته مرة واحدة وإلى الأبد، قبل أن يموت وحده، حينما أكون قد نسيت استفزازاته الوقحة، ولا أخالف مبدأ عدم قتل أحد من أجل المتعة.

سألني الممرض ماذا بالسيد بلايستين؟ فأجبته أنه يعاني من جرعة زائدة من الباريبتورات. أدخلونا، على الفور، داخل المبنى وجاء طبيب وممرض بكرسي متحرك مباشرة لاصطحابنا. إدواردو بلايستين واحد من هذه الأصناف. واحد من هذه الأصناف من الناس الذين يأتون إلى مصلحة الطوارىء، عندما تكون أنت هناك لأكثر من ثلاث ساعات، تموت على صف من كراسي الانتظار، ويقول إنه يعاني من حساسية تجاه بعض الأدوية، فيمر أمامنا كلنا نحن الذين كنا في الطابور منذ الصباح الباكر.

سرنا في ممر طويل تفوح منه رائحة الكلور والكحول الإيثيلي والمطهِّر، وفجأة جرَّ الطبيب حقيبتي مع أشيائي، دون أن يطلب إذني، وقال:

- آه، حسناً. أرى أنكَ أحضرت الأدوية التي تناولها.

- لا... هذه أدويتي. أجبتهُ.

ثم انتزعتُ الحقيبة من يديه بضربة مخلب، قبل أن يُخرج منها العلب ويشمها واحدة واحدة. أعدت كل شيء إلى مكانه، علبة Ultram® 100 mg، وعلبة Compazine® 5 mg، وعلبة Eulexin® 250 mg، وعلبة Pepcid AC Maximum Strength® 20 mg، وعلبة Cardizem® 240 mg، وعلبة Feldene ® 500 mg، وعلبة Valtrex ® 500 mg، وعلبة Xanax ® 1.0 mg، وعلبة Prozac ® 60 mg. دون أن أفهم لماذا يستمر الطبيب الآن في النظر في عيني، وعيناه مفتوحتان للغاية وتحاولان اعتراض المسار المنحرف لعينيَّ. لست أدري لمَ كل هذا التهويل، إذ يستحيل أن يعرف أنَّ جميع الوصفات الطبية التي أحصل بها على هذه الأدوية مزورة، وأنَّ الأدوات التي أستعملها لحل الأقفال ودفع الأبواب توجد في الجزء السفلي من الحقيبة ولم يتمكن من رؤيتها، وأنني تخلصت منذ أكثر من ساعة من السكين ذات الشفرة الفولاذية من تسع سنتيمترات في سلة قمامة بشارع كلاوديو كويلو.

يجرّني السيد بلايستين من كمِّي. أقترب منه، مائلًا قليلًا

كلما اقتربت، مخاطرًا بأن أصاب بنوبة ألم عضلي أسفل ظهري، أو حتى أن أتسبب لنفسي في نوع من الفتق البطني. عندما صارت أذني بجانب وجهه، تمتم:

- أرى أنك معروف هنا.

قال ذلك لأننا منذ دخولنا المستشفى بادرني بالتحية طبيبان وممرضتان وممرض وعاملة نظافة. أجبته أنني، منذ زمن، كنت آتي إلى هذا المستشفى، لكني عدلت عن ذلك الآن. كنت مقتصدًا جدًا في كلماتي، لأنني لم أكن أرغب في إفساح المجال للحديث عن ذلك الموضوع. لكن، عندما وصلنا إلى الغرفة التي سيقومون فيها بغسل معدة بلايستين، سألني طبيبان شابان كانا يقفان بجانب الباب، ويبدو عليهما أنهما مستمتعان للغاية:

- بماذا رزقتم؟ ولد أم بنت؟

٤٧

تلقّى فرانسوا ماري أرويه، المعروف أكثر بلقب فولتير، طوال حياته، الرِعاية من قبل أفضل الأطباء في كل أوروبا الغربية. وقد وفُقوا في تشخيص أمراضه ووجدوه يعاني من الجدري والإنفلونزا ومرض الحمرة والالتهاب الرئوي وتضخم البروستاتا ونوبات السكتة الدماغية؛ لكن لا أحد ممن يدَّعون التخصص في جسم الإنسان استطاع أن يكتشف لديه أمراض النقرس، والروماتيزم، والتهاب الشعب الهوائية، والأصل غير المتوقع للحمى، والإسقربوط، أو اضطرابات الجهاز الهضمي، التي عانى منها جميعها منذ طفولته الأولى إلى آخر أيام وفاته.

ولأنه كان ذا روح حساسة، فقد كان رجلًا مُطارَدا بسوء الحظ نفسه الذي طالما ضايقنا نحن الملعونين بقوانين الصدفة. على الرغم من جهود أطباء العلوم الطبية، والجهود التي بذلها السيد فولتير نفسه في علاج نفسه، لم ينجح قط في تحرير نفسه من العلل التي كانت تعذبه، والرسائل الواحدة والعشرين ألفًا،

التي حرّرها بخط يده والتي ما تزال محفوظة إلى اليوم، مليئة بإشارات مستمرة لا تُحصى إلى حالته الصحية.

في نوفمبر ١٧٢٣، وهو في سن التاسعة والعشرين، أثناء الوباء الذي اجتاح فرنسا، أصيب السيد فولتير بجدري أجبره على تحرير وصيته الأولى. توالت الوصايا والأمراض، رغم أنَّ فيلسوفنا، بقدرة معجزة ما، استمر على قيد الحياة، كأنه مولع نادر وفريد بجمع أنواع الأمراض. في يناير ١٧٥١، كتبَ فولتير إلى الكونت دارجينتال من مملكة بروسيا، يأسف لأنه ذهب ليموت على بعد ثلاثمائة فرسخ، وفي الرسالة أكد أنه قد راكمَ أربعة أمراض قاتلة. من الصحيح أنه، حينئذ، عانى على الأقل من انزعاج واحد جعله يلزم الفراش لمدة ستة أشهر تقريبًا، وألحق أضرارًا بِلثَتِه لدرجة أن أسنانه بدأت تتساقط. وقد خضع السيد فولتير، الذي خمَّن مرة أخرى أن أجله قد حان، إلى علاج صارم يعتمد على مضادات للتعرق وشراب البجع وقلْع الأسنان. وذلك إنما زاد من أمراضه، وفي حوالي عامين فقدَ جميع أسنانه العلوية ومعظم أسنانه السفلية.

بعد تلك التجربة مع الأسنان، توصل السيد فولتير إلى استنتاج مفاده أن الطب لا يعدو أن يكون سوى فنٍّ يعتمد تسلية المريض بينما تعالج الطبيعة مرضه. ومنذ ذلك الحين، رفض الاستمرار في الخضوع لتعليمات الأطباء. ومع ذلك، ونظرًا لأنه لا يوجد شخص قادر على الاستسلام للألم، فقد قام بأبحاثه وتشخيصاته الخاصة، وعالج نفسه كثيراً: كان يتناول

مسْهِّلات مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع، ويأخذ حقنًا شرجية من الصابون، ويتناول أشربة طبية قادرة على قتل أي بكتيريا موجودة في معدة الإنسان.

أمضى فولتير النصف الأول من حياته محاطًا بالأطباء الذين ربما فاقموا أمراضه. والنصف الثاني محاطًا بأدوية ربما خففت من معاناته، أو ربما، على العكس من ذلك، كانت مجرد أدوية وهمية. في هذه السنوات الأخيرة، التي اعتاد أن يتجول فيها ليراه الناس بباروكة غنجة مجعدة، وهو ما يزال مستاءً من جماعة الأطباء، كان الفيلسوف يقول مؤكدًا، بابتسامته المرهفة بلا أسنان، لكل من أراد الاستماع إليه:

- مهما فكرتُ في الأمر، ومهما تأملتُ فيه، لا أعرف شيئًا أكثر إثارة للضحك من طبيب لا يموت من الشيخوخة.

وبالتأكيد لا بد أنه رأى العديد من الأطباء يموتون، كل أولئك الذين عالجوه عندما كان صغيراً، لأن السيد فولتير عمَّر، وهو مريض ومحتضر، وقد اعترته جميع السقام، حتى سن الرابعة والثمانين.

وكان لابد من مرور مائتين وثلاثة عشر عامًا أخرى لكي يحل الدكتور فيلياس غارانت، الأستاذ في قسم أمراض اللثة وزراعة الأسنان في جامعة نيويورك، في مقال نُشر في مجلة «Quintessence»، لغز أسنان فولتير. الاستنتاج الذي وصل إليه الدكتور غارانت هو أن السيد فولتير، وهو مريض يعاني

من العديد من الأمراض وفأر تجارب للعديد من الأطباء، كان ضحية تسمم بالزئبق، وقد بدأت آثاره في الظهور عندما أتمَّ خمسة عشر عامًا. خلال القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كان الزئبق يوضع على الجلد عن طريق التدليك، أو كان يُتناول مباشرة، كعلاج لمرض الزهري، وهو مرض معد ظن الفيلسوف الفرنسي، خلال فترة أيضًا، أنه يعاني منه.

على الأقل في مناسبة واحدة، نفعَ طبيبٌ في شيءٍ.

٤٨

الحمل الوهمي ليس شيئًا يمكن عدّه مزحة. إنه ليس شيئًا يُسخر منه، ولا يبدو مضحكًا لأحد، ناهيك عن اختصاصي في الصحة. يتعلق الأمر باضطراب جسدي، سببه تشوهات عصبية في منطقة الدماغ المسؤولة عن الحس الداخلي، والتي تنطوي على أمراض جسدية متعددة في أجهزة أعضاء مختلفة، بما فيها بعضها التي تخضع للسيطرة الكاملة للجهاز العصبي الخُضَري. يمكن أن يؤثر اضطراب شكل الجسد على أنظمة مثل نظام القلب والأوعية الدموية أو الجهاز الهضمي أو الجهاز التنفسي. وإذا تم العثور على سببه النهائي في تغيير فيزيائي كيميائي فعال على المستوى القشري، فأنا لا أفهم لماذا يمكن أن يؤدي إلى الضحك!

إن أكثر أعراض الحمل الوهمي لفتًا للنظر هو زيادة حجم البطن، بسبب وضع الجسد المقوس وانتفاخ عضلات البطن. يرافق هذه العلامة إحساس قوي بحركات الجنين داخل الرحم، وغثيان، وشعور بالدوار في الصباح وقيء، وقد يعاني صاحبه حتى من الإمساك واختلال في الشهية. يمكن أن تكون

زيادة الوزن أكبر مما تكون عليه في حالات الحمل الحقيقي، كما أن مستويات هرمون الغدد التناسلية ترتفع بشكل كبير.

يعد اضطراب الحمل الوهمي أكثر شيوعًا عند النساء. لكن عدّه مرضًا أقل شيوعًا عند الرجال، وكون الذين يعانون منه يشكلون أقلية نادرة، كان ينبغي أن يكون سببًا إضافيًا للتوعية بضرر هذا الاضطراب، بدل إطلاق العنان للاستهزاء وللسخرية المبتذلة عند باب غرفة يتم فيها غسل معدة.

نمو الوظيفة الإفرازية للثدي عند الرجل متوقف، لذا، فإن التغييرات -الزيادة في الانتفاخ وحجم الحليمات، والتغير في اصطباغ الحلمات، والمحاولة العبثية لإفراز الحليب- تصبح أكثر إيلامًا. دون الحديث عن حقيقة كون الرجل قد يشعر عند كل ميليمتر بتليين عنق الرحم الذي لا يوجد لديه، وزيادة حجم الصفاق وجدران الرحم. يمكن عدّ غياب تدفق الطمث، من قِبَل المريض المذكّر، بمثابة انقطاع الطمث الفسيولوجي الحقيقي المتعلق بالحمل.

لقد خلط أطباء التوليد الأكثر خبرة بين الحمل الوهمي والحمل الحقيقي، معتمدين على الدليل الخارجي الوحيد الذي يشير إلى أنه في حالة الحمل الحقيقي تنمو السرة مقلوبة للخارج حتى تنبت مثل زهرة. وفي حالة الحمل الوهمي للرجل، ستكون لدى طبيب التوليد بعض القرائن الأخرى، ولكن لا يمكن عدّ أي منها قرينة قاطعة، لأنه مجرد مظهر، ويمكن أن يكون خادعًا مثله مثل كل المظاهر.

٤٩

حسب ما أتذكره، بدأت علاقتي مع الأطباء في الرابع من أبريل ١٩٧١. دخلت عيادة طبيب أسنان طفلًا سعيدًا يتمتع بصحة جيدة، وخرجت منها بتشخيص يؤكد كون لجيم اللسان في شفتي السفلى مجرورًا ودعامة لثة متقرّنة غير كافية، وبشعور مفاده أن فقداني لكل أسناني مسألة وقت فقط، وأنني لن أتمكن أبدًا من الابتسام. ثم أجبرني جسدي المليء بالأمراض على الامتثال إلى الأطباء أينما حللتُ وارتحلت. أعرف جميع المجمعات الصحية في مدريد ومستشفياتها الجامعية، وعياداتها الخاصة ومراكزها الصحية المحلية، ومختبرات التحليلات السريرية، والأطباء العامين والمتخصصين، ومصالح الطواريء والصيدليات.

في البداية، دائمًا تكون العلاقة مع موظفي الصحة العمومية ودّية. عندما كنت شابًا ساذجًا وعديم الخبرة ذا ركبتين عظميتين، كنت أشعر عند زياراتي الأولى لهم بأنهم ينصتون إلي ويلاحظونني ويلمسونني ويستكشفونني، بل حتى إنهم

يقومون بتشخيص حالتي ووصف دوائها بشكل صحيح. لكن مع مرور الوقت، صار هذا العلاج يتدهور، وفي الغرف البيضاء والمعقمة في مباني الوقاية والعلاج الصحي، يصبح كل شيء ميكانيكيًا ومتسرعًا وباردًا، وفي النهاية غير فعال. لم يعد بإمكاني حساب عدد المرات التي دخلت فيها عيادة طبيب، كانت فيما مضى فعالة، إذ بعد أن منحني بضعة أسابيع من الانتباه، ما لبثت وظيفته أن تحولت إلى مهمة آلية مبتذلة. صباح الخير، كانوا يقولون لي. تناول هذا وهذا، كانوا يقولون. سنرى كيف ستسير الأمور. عُد في يوم آخر... لكن ما لم يفهمه أي واحد منهم هو أنه لا يمكن أن أعامَل مثل الآخرين، لأنني لست مريضًا مثل الآخرين. أنا معجزة طبية، كما سيُكشف عن ذلك، في المستقبل غير البعيد، تحليل الطب الشرعي لجسدي أمام الأعين المذهَلَة للعالم. أنا أحتاج إلى أن يحاول الطبيب فهمي، أن يحاول إدراك استثنائية حالتي، أن يصف لي جميع التحليلات الممكنة تقنيًا، دون تجاهل أكثرها غرابة أو أقلها احتمالًا، لأننا لن نعرف دائمًا نوع الحالة الاستثنائية التي يمكن أن تهاجم جسمًا فريدًا مثل جسمي الذي يعد مغناطيسًا يجر إليه جميع الاضطرابات والالتهابات. ما أطلبه من أي طبيب هو أن يتمكن من تخصيص ساعات لعلاجي، دون أن ينشغل بكون يوم عمله قد انتهى، لأن الذي أمامه حالة من أشد الحالات تعاليًا ومفاجأة لاحظها كل طبيب؛ ينبغي ألّا يهمه الذهاب لتناول العشاء، وإذا لزم الأمر، أن يأتي معي لنتناول عشاء معًا في مطعم ما، ونستمر هناك في الحديث عن القائمة

اللا نهائية لأمراضي. هل بهذا أطلبُ الكثير؟ ألا يكفي ما أقدمه مقابل ذلك من مجموعة كاملة من الاستثناءات التشريحية والفسيولوجية والعصبية لاستكشافها والمغامرة بها؟

قال لي آخر طبيب سريري اتصلت به ذات مرة من المنزل، لأنني تعرضت لنوبة حادة من النقرس في منتصف الليل، ظهرت في الأصبع الغليظ لقدمي اليمنى وفي ركبتيَّ اللتين كانتا متورمتين، من الجانب الآخر من الخط:

- بحق الرب الكريم، أرجو أن تتوقف عن مهاتفتي طوال الوقت، سيدي! انظر، سأعطيك رقم هاتف آخر. اكتب. تسعمائة وواحد. مائتان واثنان وأربعون. ستمائة وستة وعشرون. هل سجلته؟ إنها شركة تجهيز جنائز، إنها بالتأكيد ستخدمك أفضل مني.

منذ ذلك الحين، قررت عدم الاستمرار في الخضوع لتعاليم هؤلاء المتخصصين المفترضين في جسم الإنسان. إن علاقتي بالأطباء، بلا شك بسبب نزوة عناية إلهية، موازية لعلاقة السيد فولتير بهم، بل وتتبعت ترتيبًا موازيًا لحياته في مراحل مختلفة من حياتي. منذ سنوات وأنا أقوم بفحوصاتي وأصرِّح بتشخيصاتي وأصف علاجاتي. الطب ما هو إلا فن الترفيه عن المريض، وأكاد أقول إن ذلك يكون على حساب تقويض مزاجه والقليل مما يتبقى له من صحته الجيدة.

في عام ١٩٩٨، صممت الجمعية الأمريكية للطب النفسي

ومركز الأبحاث والسياسات الصحية دراسةً حول تأثيرات ثلاثة أنواع مختلفة من العلاج على مجموعة من أربعين شخصًا، تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وستين عامًا، تم تشخيص مرض الاكتئاب لديهم. قُسمت العينات بشكل عشوائي إلى ثلاث مجموعات، وخُصص علاج مختلف لكل منها لمدة تسعين يومًا. كانت المجموعة «أ» تتلقى ٢٠ ميليجرامًا من فلوكستين يوميًا، دون جلسات علاج نفسي. والمجموعة «ب» تستفيد من جلسة علاج نفسي واحدة في الأسبوع بدون أي مكمل دوائي. بينما تتلقى المجموعة «ج» أنواعًا مختلفة من الأدوية الوهمية واستشارة أسبوعية بدون علاج نفسي. لم تترك نتيجة الدراسة مجالًا للشك: بعد فترة العلاج، والهامش اللازم لتهدئة آثاره، أبانت المجموعات «أ» و«ب» و«ج» عن نفس معدلات الانتكاس والانتعاش.

يُشفى المرضى أو يموتون أو يستمرون في حالهم دون أن يفعل بهم الدواء أي شيء. لذلك، لا ينبغي أن تكون ثقتنا بالعلوم الطبية كبيرة، تقريبًا مثلما هي بالإحصائيات.

٥٠

أنا أمام الغرفة التي يقومون فيها بغسل معدة إدواردو بلايستين. إنه الآن هناك في الداخل منذ ثلاثين دقيقة، لذلك أفترض أنهم جعلوه يستلقي على جانبه الأيسر، وأنهم أدخلوا أنبوبًا عبر فمه، و مرَّروهُ ببلعومِهِ حتى يتم توجيهه إلى معدته. سيكون رد فعل لا إرادي قد تسبب في طرد السائل إلى الخارج. وبعد ذلك سيضعون الأنبوب أسفل ارتفاع السيد بلايستين بحيث يتم إفراغ بعض محتويات معدته. ثم سيقوم الأطباء أو الممرضون برفع الأنبوب، وبواسطة قِمْعٍ سيسكبون المحلول الملحي لإثارة حركات القيء مرة أخرى. ثم مرة أخرى سيخفضون القمع ويفرغونه من جديد. وهكذا عشرين مرة أخرى، حتى لا يبقى أي أثر لا لكلوربرومازين أو السينوغان في معدة هدفي. من المحتمل أيضًا أنهم أعطوه مصل الغلوكوز وبعض الأدوية للحفاظ على ضغط الدم، وذلك إذا لم تظهر لديه أي مضاعفات أخرى.

عندما يفتح باب الغرفة ويسمح لي بالدخول، أسمع الطبيب يقول لبلايستين:

- أعلمُ أنك لست في أفضل حالاتك الآن. لكن كل شيء سيمر وستتحسن قريبًا. وهذا يخص أيضًا مزاجك. لهذا عليك أن تكون قويًا، وتساعد نفسك، وحاول ألا تقفز من النوافذ.

يغادر الطبيب الغرفة. أقتربُ من السيد بلايستين وأعرض عليه منديلي. يقبله، وبدون تردد يبدأ في إخراج المخاط من أنفه بقوة. يمكن أن نعتقد أنه يحاول البكاء، أو الندم على شيء ما، لكن يبدو أنه لم تتبق لديه دموع ليمسحها.

- سأجلس هنا. يجب أن أريح رجلي اليمنى. أقول، لأكسر الصمت.

- ماذا برجلك؟ يسألني وأنا أجلس.

- أعلم أنها تثير الانتباه. أعلم ذلك. لكن على الأقل أنا محظوظ لأنني لا أعاني من العملقة إلا في هذا الجزء من جسدي.

- تقول العملقة؟

- أجل، انظر. أريه، وقد سئمت قليلاً من محاولات بلايستين استفزازي. وأزيل حذائي وجوربي من رجلي اليمنى.

- منتفخة؟ يُصرّ، وهو ينظر إلى رجلي العارية.

أخلع حذاء رجلي اليسرى، أرفع ساقي، وأضع رجليَّ بجوار بعضهما أمام وجهه.

- ألا تراها؟ واحدة أكبر من الأخرى.

- نعم، هذا صحيح. يعترف إدواردو بلايستين. هذه، أليس كذلك؟ هذه أكثر انتفاخًا.

ثم يرفع المنديل إلى وجهه ويبدأ في الرشف ونفث مخاط أنفه، محدقًا في الزاوية البعيدة من الغرفة. أمضينا سبع عشرة دقيقة في صمت.

- لا شيء يؤثر عليك أنت، أليس كذلك؟ قال لي بعد ذلك. لا تعرف كم أغبطك. أود أن أكون دائمًا هكذا، غير متأثر. منذ أن كنت طفلًا كانوا يقولون لي دائمًا إنني حساس للغاية. والدتي، والمعلمات...

- أنا روح حساسة. أجيب.

- نعم، أعرف! يقول بلايستين، وينفجر ضاحكًا مثل مجنون.

ظل يضحك لمدة ثلاث دقائق تقريبًا مثلما كان يبكي من قبل، مع نوبات فواق صغيرة وتفخيم غير مناسب نوعًا ما. ثم أضاف:

- هذا ما أرغب فيه أنا، أن لا تؤثر عليّ الأشياء. أن أستطيع العيش في استقلال حقيقي عن الظروف والحوادث. مثلك أنت. بعيدًا عن الخير والشر. أنا إنسان، إنسان زيادة عن اللزوم.

انحنى السيد بلايستين إلى الوراء، ويبدو أنه الآن دخل

في حالة نعاس. عندما رأيته كذلك، مستلقيًا على سريره المفصلي، عاجزًا، وبعد أن أشرت إشارة سرية إلى كتاب الفيلسوف الألماني الكبير فريدريك فيلهلم نيتشه عن الأرواح الحرة، شعرت بالشفقة لأول مرة. أفكر في عودتي الأبدية إلى الشيء نفسه، إلى الهروب من هذه الحلقة التي أنا محاصر فيها. وللحظة شعرت بغواية إخباره بالتشابه شبه المطلق الذي لاحظته بين الخط الذي كُتبت به رسالة وداع عشيقته، والخط الذي على ظرف الأتعاب التي دفعوها لي مقدمًا. لكنني لم أفعل، حتى لا أوقظه. فالسيد بلايستين يحتاج إلى الراحة. ما فعلته، بمجرد مغادرتي الغرفة، وبحثي عن ملجأ خلف آلة بيع، هو إخراج الظرف من داخل معطفي، والشطب على الاسم الذي يتوافق مع الأحرف الأولى من اسم م. ك. من الورقة الأولى لوصيتي. تحسبًا لوفاتي في هذه اللحظة.

٥١

كان لدى مارسيل بروست شارب سَبطٌ أسودُ مثل شارب الأخوين غونكور. لعله تركه ينمو عندما كان شابًا مريضًا بالأدب تائهاً في أكواخ باريس، من جهة لصرف الانتباه عن رأسه الكبير بيضاوي الشكل، والبيضتين على شكل عينين اللتين يخفيهما تحت جفنيه.

مع تقدمه في السن، صار السيد بروست يجمع قائمة واسعة من الأمراض، من أبرزها، حسب شكاويه المتكررة، التهاب الأنف التحسسي، والربو، والاكتئاب الذي تملكه بعد وفاة والدته. هذه الأمراض الجديدة سجنت السيد بروست في رقم ١٠٢ بشارع هوسمان في باريس. في منزله هذا، قام الكاتب بتغطية جدران غرفته بصفائح من الفلين لعزل نفسه عن الضوضاء، وكان دائمًا يحتفظ بالنافذتين المزدوجتين مقفلتين بمزلاج من دفات ورافدات، لمنع دخول الرطوبة وغبار اللقاح وأي نوع من أنواع الصوت القادم من الخارج. وهناك كان يمكث السيد بروست خلال فترات إعداد أعماله، يدور في الغرفة من جانب إلى آخر، مرتديًا معطفًا فوق منامة حتى داخل

المنزل، لمنع حالات الانتكاس؛ عندما لا تهاجمه أزمات تعرقه وقشعريراته، ويظل متكئاً على وسادتين كبيرتين، مع قنينتين من الماء الساخن على ساقيه والمدفأة مشغلة. لم تكن تغيب قط عن منضدة سريره حبوب الكافيين والباربيتال، لتحقيق أقصى استفادة من ساعات النوم واليقظة، وكانت الغرفة دائمًا مظلمة من دخان تبخرها.

لم يكن السيد بروست يطيق العطور، الطبيعية أو الاصطناعية، ولا الزهور، لأنها تفاقم نوبات الربو لديه، وكانت كل علاقته بالنباتات من خلال زجاج النوافذ. عندما يمسح أنفه بمنديل ما، حتى دون أن ينفث أنفه عليها، كان يرميه أرضًا، بحيث كان دائمًا محاطًا بحشد من قطع القماش الأبيض وكأنها سرب من الطيور. في إحدى المناسبات، ذات عشية عطرة كانت فيها السماء منخفضة وغائمة في عام ١٩١٤، أرسل السيد بروست خادمته لشراء حزمة من أجود وأفضل المناديل التي تجدها. وبعد ساعات قليلة، ولأن الخادمة لاحظت أن المناديل التي عادت بها، على الرغم من كونها أنيقة ومن نوع جيد، فقد كان ملمسها صلبًا، فأطْلَعَت عليها الكاتب بحذر وتظاهرت بأنها لم تنتبه. قال السيد بروست:

- هذه المناديل غير مجدية يا ثيليستي. لن أستخدمها أبدًا. يمكنك أن تفعلي بها ما تريدين.

حاولت الخادمة الدفاع عما اشترته.

- لكن يا سيد بروست، هذه المناديل جديدة. بمجرد غسلها

وكيها للمرة الأولى، ستفقد خشونتها.

شجعها الصمت الذي أجاب به السيد بروست على تفسيراتها، فقامت السيدة ألباريت بغسل مجموعة المناديل الجديدة، وكيها بعناية كبيرة، وبعد ثلاثة أيام خلطتها مع البقية. في اللحظة نفسها التي عثر فيها السيد بروست على أول منديل من تلك المناديل، استدعاها.

- ثيليستي، لقد أخبرتك أنه لا يمكنني استخدام هذه المناديل. أرجو بإلحاح أن تفهمي أن هذا ليس هوسًا ولا نزوة. هذه المناديل ليست ناعمة بما فيه الكفاية، وتسبب لي دغدغة في ثقبَي أنفي مما يجعلني أعطس. شيء غير مفيد على الإطلاق لمرض الربو الذي أعاني منه.

حاولت ثيليست ألباريت، بحكمة مدبرةِ منزلٍ، ثلاث مرات أخرى تسويغ قيمة مشترياتها، وغسلت المناديل مرات متعددة بمواد مُليِّنة، وكوتها، وخلطتها بين أكوام المناديل القديمة. وفي النهاية، بعد أن سئم من عدم فهم خادمته أي شيء، وتعاملها مع أمراضه بتعالٍ وازدراء، اضطر السيد بروست إلى تمزيق المناديل بنفسه مستعملًا مقص خياطة.

والحال أنه، فوق كل تلك التفاصيل الصغيرة، كان بإمكان مارسيل بروست أن يستشعر، برؤية واضحة ومختلفة للأرواح الحساسة، شبح الموت ينقض عليه. كان بإمكانه أن يشعر بأنابيب قصباته الهوائية مثل مطاط محترق، وقلبه –المنهك جراء محاولته تحصيل بعض الهواء لفترة طويلة– مثل عضلة

ضعيفة. يومًا بعد يوم، عبر المساءات الباريسية المنحطة، كان يحاول أن يفسر الأمر لخادمته، السيدة ألباريت.

- الموت يلاحقني، يا ثيليستي. إنه يطأ على كعبيّ. لم يتبق لدي وقت. ليس لدي أي وقت.

كانت هي تستمع بصبر شديد، وتتفادى الموقف قدر استطاعتها.

- على كل حال، سيد بروست، هذا ليس سببًا للحديث عن الموت طوال الوقت. بهذه الطريقة، حقاً، لن تنهي أبدًا روايتك.

ظل الكاتب الفرنسي يعلن أنه سيموت لسنوات عديدة، بحيث لم يكن يصدِّقُه لا أصدقاؤه ولا النقاد ولا الناشرون ولا القراء. لكن مع ذلك، وعلى الرغم من ريبته وشكوكه، توفي السيد بروست في النهاية. في ١٨ من نوفمبر ١٩٢٢. ماتَ عندما لم يعد أحد يصدقه. قال طبيبه، الدكتور بيز، إنه مات بنوبة من التهاب الشعب الهوائية. ومن المعروف أنه مات من الدوار، والتهاب الأذن، وتبول الدم، والأنفلونزا، وشلل في الوجه، ونوبات قلبية، وورم دماغي، وفشله في العثور على الوقت الضائع.

طوال كل تلك السنوات التي قضاها ملاحقًا بسوء حظه، لم يكن السيد بروست خائفًا قط من الأمراض. الشيء الوحيد الذي كان يهابه، مثلي، هو أن يموت قبل أن ينهي عمله.

٥٢

مرت ساعتان على دخول السيد بلايستين في حالة نعاس. الساعة الآن ٦:٤٢ مساءً، وقد حل الظلام. في المستشفى، يتكلم الزوار القليلون الذين ما يزالون هنا بأصوات منخفضة، مشكلين تجمعات صغيرة، وينظرون إلى الأسفل. بينما الأطباء يتحدثون بصوت عالٍ، والممرضون والممرضات بصوت أعلى. في الممرات تستمر رائحة ماء القَلى المبيِّض ورائحة المطهرات، لكن رائحة الكحول الإيثيلي صارت تُستبدل تدريجيًا برائحة المضادات الحيوية والأطباق المليئة بمحضرات الطعام المعقمة. أنا أمام باب غرفة إدواردو بلايستين، لأنني من قبلُ كنت أريد أن أخبره بشيء ولم أفعل. لذلك أستغل دخول ممرضة إليه لأتسلل إلى الداخل.

- لك الحرية في العودة إلى المنزل وقتما تشاء. قال لي بلايستين عندما رآني بزاوية عينه، وهو لا يكاد يحرك فمه. أم أنك هنا من أجل العمل؟

- كنت أريد أن أقول لك شيئًا.

- حسنًا، قله لي. وانصرف.

يبدو السيد بلايستين الآن غاضبًا، لكنني لا أتذكر أنني فعلت به أي شيء لم أكن فعلته به من قبل. أتردد لمدة دقيقة تقريبًا حول الكيفية التي سأبدأ بها تفسيري. لست معتادًا على الحديث عن هذه الأشياء. عن الحديث بشكل عام.

- أخبرتني منذ فترة قصيرة أنني لم يكن يؤثر عليَّ أي شيء، وأنني لستُ حساسًا للظروف.

- كذلك قلتُ.

- الأمر ليس كذلك، أنا روح حساسة.

- أعتقد أنك استنفدت تلك المزحة.

- الحاصل أنني أُعطي هذا الانطباع لأنني أعاني من شلل في وجهي.

يدير السيد بلايستين رأسه نحوي وينظر إلي، أحد حاجبيه مجعد والآخر مرفوع. ينظر إليَّ بعناية ويقول:

- لِنرَ. هات ما عندك.

- إنني أشكو من متلازمة موبيوس. وهو مرض نادر للغاية، يرجع أصله إلى خلل في نمو نواة العصبين القَحفِيَّين السادس والسابع، مما يسبب شلل عضلات الوجه والعين التي تتحكم في حركة الرمش، وأيضًا في الحركة الجانبية للعينين.

- أنا لا ألاحظ أي شيء.

- يتعلق الأمر بشذوذ خِلْقي معقد. بسببه أنا لا أتحكم في تعابير وجهي، ولهذا السبب يمكن أن أعطي الانطباع بأن الظروف لا تؤثر عليّ. وجهي مثل قناع صلب منحوت من رخام. ربما لاحظتَ أنني غير قادر على الابتسام، وأن جفوني تتدلى، وأنني أعاني من الحول. كل هذه آثاره.

- أنا لم ألاحظ أي شيء.

- لقد وصف الدكتور موبيوس هذه المتلازمة في عام ١٨٩٢، وهو طبيب ومختص نفسي ألماني ولد في لايبزيغ، وهي مدينة ساكسونية تنمو محاطة بآخر امتداد لنهر إلستر الأبيض...

- اسكت بربك. هل هذا كل ما كنت تريد أن تخبرني به؟ اعتقدت للحظة أنك ستخبرني بشيء أكثر أهمية. كأن تقول لي، مثلًا، الدواعي التي بسببها تريد قتلي.

- كنت أريد أيضًا أن أخبرك بشيء عن ذلك. قلت.

ولكن عندما أوشكت على إخبار السيد بلايستين بالتشابه شبه المطلق بين خط رسالة وداع عشيقته، والخط على الظرف الذي دفعوا لي به مقدمًا، يدخل أحد أعضاء مجمع مستشفى غريغوريو مارانيون إلى الغرفة، ويسأل بصوت عالٍ:

- ماريو يوركيفيتش؟

- من فضلك، قليل من التكتم. وبختُه، وأمسكتُه من مرفقه بكامل القوة التي استطعت جمعها، وأنا أجره إلى أسفل.

- ماذا تقول؟ ماذا حدث لك؟

- الحق في سرية المعلومات الشخصية. همستُ في أذنه. القانون العام للصحة، الفصل العاشر، المادة الثالثة.

- السيد يوركيفيتش؟ يهمس لي الآن بدوره.

- أجل. قل لي ماذا هناك؟ قلتُ له بصوت منخفض جدًا.

- كل شيء جاهز لأخذ خزعة من الكتلة الموجودة على رقبتك كما طلبت. عليك أن تأتي معي.

- حسنًا. همهمتُ، ثم قلتُ بصوت عالٍ لبلايستين: لحظة فقط وسأعود.

٥٣

أنا في الغرفة التي سيجرون لي فيها عملية نزع الخزعة، مستلقٍ على مقعد يشبه كثيرًا كرسيِ طبيب أسنان، وتنبعث من الغرفة، من جديد، رائحة ماء القَلى المبيِّض وبيروكسيد الهيدروجين، مثلما حدث في تلك المرة الأولى.

بصري محجوب بقطع من القماش وضعوها على وجهي، وبتأثير التخدير الذي حقنوه في رقبتي. في الخزعة الاقتطاعية، يتم جراحيًا قطع أو إزالة قطعة من الأنسجة الرخوة أو الورم بحيث يمكن فحصها بعد ذلك تحت عدسة المجهر. إذا كانت خزعة جلد، كما في حالتي، يتم إجراؤها بشفرة أسطوانية مجوفة، تزيل عينة قطرها من ٢ إلى ٤ ميليمترات، بمجرد تطبيق التخدير الموضعي. بعد العملية، قد أحتاج إلى غرزة واحدة.

طلبتُ من الجراح أن يكون حذرًا جدًا عند اختيار موضع القطع، لأنني لا أريده أن يقتل، عن طريق الخطأ، أخي التوءم الطفيلي. أشرح له أنني عالق في معضلة أخلاقية كبيرة، لأنني لا أريد أن أضطر للاختيار مرة أخرى بين حياتي وحياة أخي؛ لكن

في الآونة الأخيرة، استمرَّ توأمي المتقزم في الزيادة في النمو والوزن، ولم يكفَّ عن ركل رقبتي وخدشها، مثل الأطفال الذين لم يولدوا بعد، كما أُحِس بأنني أثناء مشيي صرت أنحرف إلى جانب ازدياد الوزن. أثناء الليل، خلال الساعات الطويلة من الأرق والوحدة، تقلقني فكرة استمراره في النمو المتزايد، حتى يصبح كبيرًا مثلي تقريبًا، ويصبح هو الذي يمسك بزمام جسدي. ففي الحقيقة، كثرت الحالات التي أصبح يتكون لديَّ فيها انطباع بأنني موجه من قبل ذلك الصوت الداخلي الصغير، اللصيق بي مثلما تلتصق a وe في «dæmon»، أي الشيطان السقراطي.

لذلك في هذه اللحظات الدقيقة، عندما يغلبني عياء هذا اليوم غير المنتهي، الذي لا تتمكن ذاكرتي الضعيفة من تنظيم أحداثه، ويغرقني تأثير التخدير في دوامة من النعاس الحلو، وأصوات الأطباء تحتضنني عندما أحس بها تبتعد، لا يسعني إلا أن أحس بأن آخر شعور يراودني هو أن أخي هو، في الواقع، من أخذ موعدًا مع الأطباء هنا. هو الذي نظَّم هذا الفخ، هو الذي أحضرني إلى هذه الغرفة بخُدعة، لكي يقتلعني.

٥٤

أنا لست نائمًا، لأن اللعنة التي أصابتني منذ أكثر من ثماني سنوات تدين حلمي بالموت المؤكد. لكن يمكنني أن أرى أمام عيني، بحدة واضحة ومميزة، حديقة واسعة عشبها من صفائح قطنية، وورودها كلها صفراء محاطة بأسطوانات زجاجية محكمة الإغلاق. يتجمع وسط الحديقة حشد من الرجال العظماء. لا أستطيع أن أقدر عدد الأرواح الحساسة التي تتحادث بدون ألم، بين أخلاق رائعة وطباع رقيقة، وتتبادل تعليقات عميقة حول الحياة والموت، في قلب هذا المساء الأبيض. لكن من بين من كانوا هناك، يوجد السيد كانط والسيد بو والأخوان غونكور والسيد سويفت والسيد ديكارت والسيد بايرون والسيد كوليريدج والسيد تولستوي والسيد فولتير والسيد بروست والسيد موليير، مرتدين معاطفهم المزررة حتى الرقبة. وحولهم، عدد مماثل من الخدم، يرسمون دائرة ويترأسهم السيد لامبي، يعرضون مملحات من الصويا وأكوابًا من الشاي الأخضر، مرتدين قفازات من البولي إيثيلين وأقنعة جراحية. وكموسيقى مرافقة، أعتقد أنني أسمع النغمات

الفكاهية لأغنية «سوء فهم غير مألوف»* للسيد روسيني.

فجأة، يسود الصمت في بستان القطن الفردوسي. تتوقف الموسيقى وغمغمة محادثة الرجال العظماء، وكلهم ينظرون في نفس الاتجاه. في أحد أركان الحديقة توجد شبه خيمة دائرية ترتدي نباتات متسلقة تشتبك بها أزهار الخشخاش. على منبرها، يقف جوزيف ميريك عينُه، الرجل الفيل، وهِنًا ومشوَّهًا، متشبثًا بالدرابزين وعارضًا تشوُّهَه كله، ورأسه ملغوم بالخدوش والنتوءات، ولون معدني ينتشر على سطح جلده بكامله. أحنى السيد ميريك جبينه المنتفخ، على سبيل التحية، فاستجاب جميع الندماء بحركة مهيبة من رؤوسهم الكبيرة على أكتافهم الضيقة. ثم وضع السيد ميريك يده على جانبه الأيسر المتضخّم، وكأنه شعر بوخز مفاجئ، فلمسَ كل من السيد كانط والسيد ديكارت والسيد بروست نفس المكان المقابل في أجنابهم بانسجام تام. ضم السيد ميريك، بجهد شديد، ساقه اليمنى، وكأنه يريد أن يتركها تستريح، فقام السيدان غونكور والسيد بايرون والسيد كوليريدج بثني أرجلهم اليمنى وفرك رُكَبِهم. سعل السيد ميريك، فبدأ الجميع يسعلون بشكل جماعي.

ساد جو من الإعجاب والاحترام التبجيلي في الحفل. ومع ذلك، قبل أن يتمكن أي من تلك العقول المستنيرة من تخمين الأمر، فإن الشخص الذي كان موضع كل ذلك الإعجاب أشار

* بالإيطالية في الأصل:
L'equivoco stravagante

فجأة بسبَّابتة المستقيمة إلى كل هذا الموكب من المفكرين، وزأر:

- أيها المحتالون.

انتشرت همهمة قصيرة ومتقطعة وسط الحضور. وتابع السيد ميريك:

- أيها المشتكون المثيرون للشفقة. العزاب المتدللون الممتعضون. أنتم الذين تئنون مثل النساء البكَّاءات. كلكم منافقون!

لا أحد من الحاضرين استطاع أن يصدق ما تسمعه أذناه! حتى أنا. وعلى الرغم من قناع الورم الحليمي الثؤلولي على شكل قرنبيط الذي يغطي وجهه، يمكن أن نلاحظ أن السيد ميريك غاضب جدًا. لا أفهم لمَ هذا الهجوم غيرُ المُسوَّغ الذي بدأه ضدنا؟ من الواضح أن هذا شيء غير عادل. إن السيد ميريك يهاجمنا تحديدًا، ونحن أرواح حساسة مثله، بقسوة لا أستطيع حقًا فهم أسبابها!

- انظروا إليّ، هذا هو المرض. ثم يضيف، مبينًا تشوهاته. لماذا لا تتوقفون لحظة عن التفكير في أن أجسادكم هي مقياس العالم، وتستخدمون موهبة خيالكم فقط فيما مُنحت لكم من أجله؟

أنا لست نائمًا، لأنني لا أنام أبدًا. لكن في هذه اللحظة

يمكنني أن أجعل أوبرا السيد روسيني تسمع كموسيقى خلفية مرة أخرى، وأن يستدير السادة الندماء ويديرون ظهورهم إلى الخيمة الدائرية التي يوبخنا منها الرجل الفيل. ويمكنني أيضًا أن أمسك من يخطب فينا من ياقة معطفه، وأرفعه بعناية في الهواء، وأضعه في حديقة أخرى بعيدة عن هناك، في حديقة مختلفة عن حديقتنا. ثم، بعد أن فعلت ذلك وعاد كل شيء إلى أجوائه الهادئة، أخرجت مذكرتي من جيب معطفي الداخلي، وشطبت على اسم جوزيف ميريك من قائمة الرجال العظماء عندي. على الرغم من أنني، نعم، ما زلت أحتفظ به ضمن قائمة الأرواح الحساسة وضمن القائمة المختصرة للتعيسين ضحايا سوء الحظ.

٥٥

فتحت عيني ووجدتني في سرير مفصلي. سرير مفصلي موازٍ لسرير السيد بلايستين، الذي ينظر إلي، جديًّا.

- لقد جاؤوا بك إلى هنا لأنهم اعتقدوا أننا من عائلة واحدة، أو صديقين لا ينفصلان، حيث إننا وصلنا معًا، وهذه زيارتي الوحيدة. قال لي، ها أنت ترى. مفارقات الحياة.

- هل انتزعوا مني شيئًا؟ تلعثمت.

- لقد أجروا لك عملية خزعة، لكن يبدو أنه ظهرت عليك أعراض تعب غير عادية. وقرروا إبقاءك الليلة كلها تحت المراقبة.

- هل أتى يوم الاثنين؟

- نعم. وسيرخصون لنا للخروج من المستشفى معًا ظهر اليوم.

يدخل ضوء أبيض غير عادي من النافذة حتى لمس أقدام

السريرين. تدخل ممرضة إلى الغرفة وتقيس نبضات قلبي وضغط دمي. يداها ناعمتان ودافئتان. اثنتان وثمانون نبضة في الدقيقة، ومائة وستة وعشرون ميليمترًا زئبقيًا في العليا، وسبعة وسبعون ميليمترًا في الدنيا. من مكاني، لا يُسمع أي شيء سوى عربات الممرضات في الممر وهي تحمل أواني الإفطار. نشم رائحة خبز طازج.

- عندما أخذوكَ كنتَ على وشك إخباري بشيء ما.

- أجل. أجبت بلايستين، لكني لاحظت أنني أجد صعوبة في بدء الحديث. هل تمكنت من قراءة الرسالة التي تركَتْها لك الآنسة ميلاينا يا سيد بلايستين؟

- نعم. بالتأكيد. حال مغادرتها.

- أنا أيضًا قرأتها. ويجب أن تعلم أنني خبير في الخط.

- وماذا بعد؟ هل ستقول لي إنك وجدت شيئًا في شخصيتها؟

- لا. أعتقد أنك الآن تعرف أنني كنت أحاول قتلك، أليس كذلك؟

- لاحظت شيئًا كهذا، أجل.

- حسنًا، لا يمكنني إخبارك من دفع لي مقابلًا لإنهاء حياتك، لأنني لا أعرفه. وحتى لو كنت أعرفه، فلن أفصحَ عنهُ، بالطبع، لأسباب تتعلق بأخلاقيات المهنة. لكن والحالة هذه، فأنا لا

يمكنني إخبارك لأنني لا أعرف، وليس لأنني لا أريد.

- هل سيقودنا هذا كله إلى نتيجة ما؟

- عندما دفعوا لي مقابلًا لمهمتي، أعطوني المال في ظرف عليه كلمة مفتاح مكتوبة بخط اليد من الخارج. لا ينبغي أبدًا أن تكتب عناوين الأظرف، ولا كلمات التهديد بالقتل، ولا أي شيء من هذا القبيل، بخط يدك. هذا يعرفه أي مبتدئ.

- أكمل.

- خط رسالة ميلاينا هو نفسه خط الظرف يا سيد بلايستين.

توقف إدواردو بلايستين عن النظر إليّ، أدار رأسه وظل عاجزًا عن الكلام على سريره المفصلي، يتأمل السقف. لا يحرك أي جزء من جسده، ولا يرمش حتى. في الواقع، حتى أنا استغرقت بضع دقائق للتأكد من أن رئتيه لا تزالان ترتفعان وتنخفضان على وتيرة تنفس خفيف. لأول مرة ألاحظ أن شعره الأبيض الغزير، الممشوط إلى الوراء على طريقة فريدريك بروسيا، الذي كان يتألق به، فقدَ قوته وأصبح الآن ذابلًا وبلا حياة، وكأن عاصفة داهمته في منتصف الليل.

- ألم تكن تتخيل أنها يمكن أن تكون هي؟ أسأله للتو.

- أنت لا تفهم ذلك.

قال هذه الجملة الأخيرة ونظرتُه ما زالت تائهة في امتدادات

الهواء، وأظنه أنه كان على وشك أن يقول شيئًا آخر، ولكن في تلك اللحظة رن هاتف الغرفة مقاطعًا محادثتنا الودية. رفعتُ يدي إلى صدري، لأن الجرس المعدني فاجأ قلبي المسكين على حين غرة، الذي بدأ في هذا الصباح الناعم ليوم الاثنين يخفض حذره. رفعَ السيد بلايستين السماعة، وهو الآن يمسكها بين كتفه ووجهه، وسمعته يقول:

- لا، لا تعطها الهاتف لتكلمني... لا يهمني إن كانت تصر، أو أنها تحاول أخذ الهاتف منك. لا أريد التحدث معها... لكن... آلو؟ لاورا؟... نعم، نعم، أنا بخير. وكيف حالك؟... كيف لا يهمني كيف حالك؟ إنها طريقة في التحدث، اللعنة، ماذا تريدني أن أقوله لكِ ونحن نتحدث فقط عبر الهاتف؟... لا، لا، لا تصعدي الآن. إنهم يصرِّحون لي بالخروج الآن. لا، لا تصعدي... لاورا؟... أنا...! اللعنة على هذه العاهرة!

يطلق السيد بلايستين شهقة طويلة ويتكئ على السرير. أسأله عما إذا كان بخير، لكسر الصمت فقط، ليس لأنني أظن أن حاله يمكن أن يكون أسوأ، ولو بجزء من الألف، من حالتي، لكنه لا يجيبني. عاد إلى الصمت، كأنه يعاني نوع من الحبسة الانتقائية. رغم أنه عندما ينظر هكذا إلى السقف، يبدو بالأحرى أنه يعاني نوع من التوحد، أو سكتة دماغية أغرقتهُ في حالة خمول. أتخيل أنه وجد أخباري بمثابة صدمة عاطفية.

- ألم تُرد إخبار أختكَ بذلك؟ أحاول أن أبدو مهذبًا، دون أن

أسقط في الفضولية. رغبة عشيقتك في قتلك، أعني.

- أنت لا تفهم ذلك. ليست ميلاينا.

- ماذا تقول؟ لا، لا، أخشى أنني لم أفسر لك جيدًا. لقد قلت لك إن الخطّين متطابقان. ليس هناك احتمال للخطأ. أنا خبير في الخط.

- ليس لدينا وقت. علينا أن نخرج من هنا. أختي صاعدة إلى هنا.

بقفزة رشيقة مدهشة، نزل إدواردو بلايستين من السرير. أرقبه بحسد، وأنا أشاهده يرتدي حذاء خفيفًا من البولي بروبلين ذا نعل غير قابل للانزلاق، ويتوجه إلى الخزانة الصغيرة في الغرفة. يلبس معطفه فوق قميص المستشفى الرقيق الذي يكشف عن ظهره الطويل، يشد أزراره، ويقترب من سريري ليضع لي معطفي على حجري.

- هيا بنا. يقول لي وهو يساعدني على النهوض. إنها على وشك الوصول.

وافقته، لأن ذلك ما يجب فعله دائمًا مع أي شخص أصيب ببادرة اضطراب عقلي مفاجئة، وارتديت معطفي فوق قميص المستشفى.

بعد خروجنا من الغرفة، نظر بلايستين حولنا، وأمسك بذراعي، وأجبرني على السير بخفة في الممر؛ رغم أنني

لاحظت أنه يستخدم ذراعي أيضًا ليتكئ عليه، وأن لديه أكياسًا قاتمة كبيرة تحت عينيه، وبشرة شاحبة مائلة إلى الصفرة. نتوقف أمام أبواب المصعد. درجة حرارة المكيف عالية جدًا، ولا أعتقد أن هذا الأمر جيد لتجنب انتشار الفيروسات التي تنمو وتتحول وتتواطأ في هذا النوع من المنشآت. تُفتح الأبواب، وألاحظ أن السيد بلايستين يدفعني بعنف إلى الأمام، لكن عندما استدرت لأرى ما سبب ذلك، اختفى. أنظر داخل المقصورة، فأجد سيدة سمينة ترتدي تنورة وسترة زرقاء داكنة، وعقدًا ضيقًا من اللؤلؤ حول رقبتها، هي بكل وضوح أخت هدفي.

- هل تسمح لي؟ تقول لي.

- طبعًا. أقول لها وأقف بين بابي المصعد الأوتوماتيكيين.

- أقول، هل تسمح لي بالمرور. تكرر السيدة ذات الحواجب المرتفعة، بعد أن اقتربت مني ورجعت خطوة إلى الوراء.

- طبعًا، أنا متسامح للغاية. قلتُ مرتجلاً. يجب على كل من يريد امتهان فن القتل، وهو فن قديم ونبيل، أن يكون قادرًا على الارتجال؛ على الرغم من أنني أشعر في هذه اللحظة بدرجة الحرارة ترتفع في جسدي كله، وتحديدًا في الخدين والأذنين وعلى سطح فروة الرأس، وأن شعورًا ناعمًا بالدوار يغمرني، لأنني في أعماقي لست أدري لماذا يحدث كل هذا؟ ولا ما هو متوقع مني؟

- لكن ماذا تقول أيها المعتوه؟ ابتعد عن الطريق. قاطعتني المرأة. شفتاها منمَّطتَان، وربما بشكل دائم بواسطة تقنية الصبغ المجهري؛ رغم أنني لا أستطيع أن أقول إن ذلك في صالحها.

- مع ذلك -تابعتُ محافظًا على أعصابي- يجب أن تكوني حذرة للغاية في هذه المرافق. المبنى مليء بالأطباء. وإن كان هناك شيء غير طبيب فهو متسامح. أنا في الواقع قد أعرّفهم على أنهم العكس: إنهم كائنات مقيِّدة أساسًا.

كنت أريد أن أضيف أيضًا أن المتخصصين في الجسم البشري، وحتى موظفي الصحة العمومية الآخرين، ليست لديهم أية حساسية مفرطة، لكن أخت بلايستين كانت تقوم بتكشيرات بوجهها وإشارات بذراعيها، والآن يساعدني حارس أمن على إخلاء مدخل المصعد، وأعتقد أنه يحاول أيضًا مساعدتي للخروج من المجمع الاستشفائي.

وبينما كنا نسير في الممر، قابلَنا السيد بلايستين. أظهر بطاقة لحارس الأمن، وأكد له أنه سيرافقني ويتكفّل بكل شيء. عدنا أدراجنا وهدفي لا يتوقف عن رفع رأسه والنظر في جميع الجوانب.

- شكرًا. قال لي بعد بضع دقائق.

الآن نحن اللذيْن نوجد في مقصورة المصعد، ننزل إلى الطابق الأرضي. ولأن بلايستين لا بد أنه لاحظ أنني لم أفهم

شيئًا منذ مدة، فقد صقل حلقه ثم تمتم، وعيناه مثبتتان على أرضية المصعد:

- لا يمكن أن تكون ميلاينا. نظريتك خاطئة. توقف السيد بلايستين قبل أن يسترسل، دون أن يرفع نظره عن الأرض. ميلاينا لديها انفصال مفصلي في يدها اليمنى، لا يمكنها فعل أي شيء بهذه اليد، ناهيك عن أن تكتب بها. عندما غادرتُ منزلي صباح أمس طرقَتُ باب أختي. سمعتهما تتحدثان لفترة من الوقت عند السلم. ميلاينا هي التي أملت الرسالة على أختي. إنها هي. تعرفت على خط يدها على الفور. لقد كنتَ تتحدثُ إلى رئيستِك في العمل منذ لحظة.

ظللت صامتًا لبضع ثوان. تضبَّبت رؤيتي، وأجدُ صعوبة في الحفاظ على مسار عيني مستويًا. أقدّر إلى أي حد يمكن أن يكون إدواردو بلايستين على حق، وهل من الممكن حقًا أن يكون هو قد وصل قبلي إلى الحل الصحيح لهذه الفوضى، وهو الذي يفتقر إلى عقل مدرب مثل عقلي؟

- أتفهَّم أن تكون شريكتك الرومانسية تريد قتلك، سيد بلايستين. أقول، وأنا ما زلت أحاول تجميع الوضع الجديد في ذهني. لقد قمت بتركيب عدد من أجهزة التنصت في منزلك، وتأكدت من كون علاقتكما لم تكن على ما يرام. لكن لماذا ستريد أختك أن تقتلك؟

- كانت لديها مشاكل.

- لعلها كانت مجبرة على الاختيار بين حياتك وحياتها الخاصة؟ أسأله، لأنني تعلمت على مر السنين أن أفضل طريقة لفهم ألغاز العلاقات الإنسانية هي تطبيق تجاربي الخاصة. لكن بلايستين ينظر إليّ بطريقة مضحكة ولا يقول شيئًا، لذلك أحاول أن أبدو أكثر واقعية، وأضيف: هل تعني مشاكل مالية؟

- نعم، مالية أيضًا. كانت تريد بيع بعض ممتلكات من تركتنا، وأنا لم أوافق... لكن مشكلتها الحقيقية شيء آخر. علينا دائمًا أن نفعل ما تريده هي. متى وكيفما تقرر. ليست لديها القدرة على رؤية العالم بعيون الآخرين... إنها معتوهة. لقد كانت كذلك دائمًا. في الحقيقة، لا أعرف ممّا أتعجب.

عبرنا المدخل وفضاء الاستقبال دون أن يحاول أحد توقيفنا. وخرجنا من المستشفى نسير جنبًا إلى جنب، نشعر بشيء من الدوار، متذبذِبَين قليلًا. أعتقد أننا طوال هذا الوقت ظللنا قريبين من بعضنا لعلنا نحتاج في أي لحظة دعمًا حتى لا نسقط من طولنا على الأرض، لأننا عاريان من الخصر إلى أسفل.

بعد خروجنا من مرافق مجمع مستشفى غريغوريو مارانيون، توقف السيد بلايستين والتفت إليّ ونظر في عيني. سماء الظهيرة منخفضة غائمة، وبها انتعاشات شتوية. ويمكنني أن أشعر بالبرد على ساقيَّ العاريتين، نزولاً إلى أعلى قدمي.

- هل ستستمر في محاولة قتلي؟ يسألني.

- عليّ فعل ذلك، لقد دفعوا لي مقدمًا.

- ولو كان كذلك. قريبًا سيتم حبس أختي. سوف أفعل كل ما هو ممكن ليحبسوها. في مستشفى للأمراض العقلية. لماذا لا تحتفظ بالمال وتذهب إلى مكان آخر؟

- هذا مستحيل يا سيد بلايستين، أنا رجل ذو أخلاق كانطية. وإيمانويل كانط كان يقول: «علينا أن نتصرف فقط بالطريقة التي تجعلنا نتمنى أن يتصرف جميع الناس بها». وأنا لا أريد أن أدفع لقاتل محترف ليقتل أحدًا ويذهب بأموالي إلى مكان آخر.

ينظر إليّ إدواردو بلايستين بضع ثوانٍ أخرى. أعتقد أنه يظن أنني أمزح. ثم يصافحني. أنا، على عكسه، لا أضغط كثيرًا على يده، لأنني في أقصى قوتي، ولأنني لا أرتدي قفّازيَّ لأحمي بهما نفسي من الجراثيم والبكتيريا والفطريات. ثم استدار هدفي وبدأ يسير على الرصيف، بمعطفه المزرر حتى العنق، ما يغطي كل شيء كما يقول هو، تحت صف الأشجار التي تركها الخريف بدون أوراق. عبرتُ إلى الجانب الآخر من الشارع، وبدأت أمشي في مسار موازٍ له، خلفه على بعد أمتار قليلة، وأتبعه على مسافة آمنة. أرفع طيّتيْ صدر معطفي، وأتمكن من سماع صوت داخلي يقول بوضوح:

«وهكذا ابتعدا مشيا، خلال فترة ما بعد الظهيرة الشتوية لمدينة مدريد المزدحمة، تحت صف من الأشجار التي تركها الخريف دون أوراق، السيد بلايستين والسيد ي...».

٥٦

مات السيد كانط. مات عندما لم يكن أحد ينتظر وفاته. في ١٢ فبراير ١٨٠٤. عندما كان الجميع يعتقدون أنه محصّن ضد نزلات البرد الملازمة له، مات وذهب ليستقر في قبر بجوار كاتدرائية كونيغسبيرغ، التي هي اليوم كالينينغراد الروسية. على الرغم من أنه حُرم الحقَّ في الراحة، إذ في عام ١٩٤٥ دمَّر القصف السوفياتي لتلك البلدة البروسية الصغيرة قبره الأصلي، وما يُحتفظ به اليوم ليس سوى نسخة متواضعة لذلك القبر.

مات السيد بو أيضًا، رغم أنَّ أحدًا لم يصدقه عندما كان يقول إن الموت وسوء حظه يطاردانه. في ٧ أكتوبر ١٨٤٩. وانتقلت رفاته المنهوكة إلى المقبرة الغربية القديمة في بالتيمور، دون أن يكلف أحد نفسه عناء وضع شاهد على قبره. كان لا بد من الانتظار سنوات ليبنوا له، أخيرًا، قبرًا لائقًا به. ولكن في اللحظة التي سيضعون فيها عليه اللوحة، تمكَّن سوء حظه، الذي لا يعرف الكلل، من معرفة ما كان يحدث من خلال نوافذ نفس القطار الذي كان يلاحق منه الشاعر ذات يوم

بعيد، فاستعان بقواه المظلمة، وجعل السكة الحديدية تنحرف عن مسارها بهدف وحيد هو تحطيم شاهد القبر وجعلها إربًا. منذ ذلك الحين، انقضى وقت طويل قبل أن يُبنى قبر جديد للسيد بو التعس، بل إنه عندما هُيِّئَ القبر رسميًا سنة ١٨٧٥، أخطأ العمال في التابوت، والرفات، لذلك فإلى اليوم يزور الآلاف من المعجبين الرجل الخطأ. الجميع ما عدا أنا، لأنني منذ عام ١٩٩٤، أزور قبره الحقيقي كل تاسع عشر من شهر مايو، وأشرب نخب عيد ميلاد أكثر الشعراء تعاسة، وأترك هناك الزجاجة مع ثلاث وردات صفراوات.

مات السيد ديكارت. رغم ضحك معاصريه من إحساسه بالبرد وحبه للمدفأة، مات، في ١١ فبراير ١٦٥٠، وانتهى الأمر برفاته المتجمدة في مقبرة فريدكسكيركان في ستوكهولم. ولكونه ملاحَقًا نموذجيًا بسوء الحظ، فحتى بعد وفاته لم يُمنح الراحةَ، إذ تم استخراج جثته، في ١٦٦٦، ليتم نقلها إلى مقبرة مونتاني سان جينيفيف، في باريس. وكما لو أن ذلك لم يكن كافيًا، فقد تم استخراجها خلال الثورة الفرنسية مرة أخرى، ونقلها إلى ضريح الرجال اللامعين. ومرة أخرى أيضًا، في عام ١٨١٩، جعلَ القدرُ القليلَ مما تبقى من رفاته يُستخرج للمرة الرابعة، ويُنقل إلى دير سان جيرمان دي بري. غير أنه هذه المرة، عند فتح التابوت، تم اكتشاف كون رأس السيد ديكارت لم يكن مرتبطًا بجسده. فقد سرق النقيب إسرائيل هانستروم الجمجمة أثناء نقل الجثمان من السويد إلى فرنسا؛ وهو الذي

لا يُعرف عنه هل كان راديكاليًا مناهضًا للديكارتية؟ أم أنه، على العكس من ذلك، من الأتباع المتحمسين لمذهب الفصل بين ثنائية العقل والجسد (res cogitans – res extensa)؟

مات أيضًا السيد بايرون، الذي كان الجميع يعتبرونه متمعنًا أنيقًا في أمراضه. في ١٩ أبريل ١٨٢٤، وعمره ستة وثلاثون عامًا، وفاءً للعنة التي كانت تقع على الذكور من عائلته. كان قد سافر إلى حبيبته اليونان للنضال من أجل استقلالها، وضد مصالح الإمبراطورية العثمانية، وهناك أصيب بنوبة صرع وانتقلت إليه عدوى الملاريا. وصفَ له الأطباء، الذين لم يكن يؤمن بهم، علاجًا أساسه النزيف الدموي. في البداية، رفض السيد بايرون أن يعالج. لكنه، بعد أيام، عندما كاد المرض أن يستنفذ منه كل قوته، وافق على أن يزيل منه الأطباء كل الدم الذي يريدونه. وبعد ثلاثة أيام توفي، وجسمه ينقصه لتران من الدم، أمام صرخة قاتليه. ثم ذهب رفاته المعصور ليستقر في كنيسة القديسة مريم المجدلية في نوتنغهام شاير. سوء الحظ الذي يطارده جعلهم يقومون باستخراج جثمانه بعد مائة وخمسة وأربعين عامًا، ليتم نقله هذه المرة إلى وستمنستر، في ركن الشعراء.

عندما كان المجتمع الفرنسي برمته يشك جديًا في أنَّ وفاة كاتبه قد تحدث، انتهى الأمر بالسيد فولتير أيضًا بالموت. بعد أن نجا من عشرات الأطباء ومن ستة من الأمراض المميتة، مات من شدة الإثارة. في ٣٠ مايو ١٧٧٨، بعد يوم في باريس

أُغرق فيه بالتشريفات وتوافدَ المعجبون به لرؤيته في موكب حتى فندق مدام فيليت حيث كان يقيم. ثم، بعد أن صار جثة، رفض الباريسيون دفنه. فاضطرت بقايا السيد فولتير العاطفية أن تبحث عن الراحة في ضواحي المدينة، في دير سيلير، حيث كان ابن أخيه، في ذلك الوقت، رئيسًا للدير. لكن لم تمنح له الراحة ولو ليوم واحد، إذ أنه قبل أن يدفن، انتزع طبيب مجهول قلبه، متأثرًا ربما بالسعر الذي وصلت إليه أعضاء الفلاسفة في السوق منذ سرقة جمجمة ديكارت؛ أو ربما انتقامًا من العداء الذي كان هذا العبقري يكنُّه لأصحاب مهنته. بعد سنوات، في عام ١٧٩١، مثلما حدث للبقايا الديكارتية المشوهة، خلال الثورة الفرنسية، تم استخراج جثمان السيد فولتير ونقله إلى ضريح الرجال اللامعين في باريس، حيث وضعوه بجوار عظام عدوه الأبدي جان جاك روسو. اليوم، ما يزال جسده الذي نخرته جميع الأمراض يتحرك تحت الرخام، بينما، على العكس من ذلك، عضو الضخ في صدره يلمع في صندوق زجاجي في المكتبة الوطنية بباريس، كدليل قاطع على أن فولتير كان لديه قلب بالفعل.

أما جان بابتيست بوكلين، المعروف بلقب موليير، وبعد حياة عاشها ملاحقًا بالمرض وفارًا من الأطباء، فقد مات أيضًا، مثلهم جميعًا. بلغ السيد موليير شهرته بسبب انتقاداته القاسية للأطباء والصيادلة، الذين كان يعدّهم دجالين يختفون وراء مصطلحاتهم التقنية وكلماتهم اللاتينية، ويعدُّهم علقيات

تقتات على الضعف البشري وتميل بشكل طبيعي إلى الأفكار المَرَضية. ولكن آنذاك، بعد أن اعتاد الجميع على نذير موته المستمر، وعندما كانت باريس كلها تعتقد أنه محصَّن من العديد من الأمراض التي كان يقول إنها تخترق جسده، مات يوم ١٢ فبراير ١٦٧٣، في ذروة تمثيله لمسرحيته «المريض الوهمي». كان يرتدي زيًا أصفر اللون على خشبة مسرح القصر الملكي، عارضًا لبدة شعره الأسدية، عندما باغتته آلام غريبة في بطنه، وأمام جميع المتفرجين، بسبب الجهد الذي بذلهُ، فقدَ وعيه. قام السيد موليير مرة أخرى، واستمد قوة من ضعف، وضغط بيده على بطنه لتخفيف الألم، واستمر في أداء دوره حتى النهاية. ثم مات في النهاية. كان قانونٌ صدرَ في باريس عام ١٦٥٤ يحظر دفن العاهرات والخليلات والمُرابين والسحرة والكوميديين دفنًا مسيحيًا، ممَّا جعل جسد السيد موليير يهيم أيضًا مدة خمسة أيام في شوارع باريس، إلى أن دُفن، بوساطة من راعيه الملك لويس الرابع عشر، في مقبرة سان خوسيه سراً وليلًا. لم يتركوه يرتاح، طبعًا، إذ أنه، في عام ١٨٠٤، تم إخراج جثته الفاسدة، التي دمرتها جميع الأمراض، ونقلها بلا رحمة إلى ضريح في مقبرة بير لاشيز.

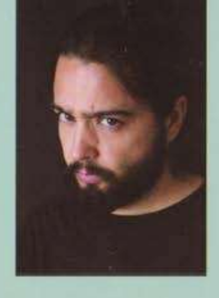
كل هؤلاء الرجال العظماء ماتوا. بعد سنوات من إعلان وفاتهم يومًا بعد يوم، عندما لم يعد أحد يصدقهم، لا أصدقاء ولا نقاد، ولا ناشرون ولا قراء، رغم كل شكوكهم وكل ارتيابهم، ماتوا.

٥٧

اليوم يوم ثلاثاء، لذلك أعلم أنَّ إدواردو بلايستين لن يتأخر في الظهور في شارع بيرخين دي لوس بيليغروس في زاوية تقاطعه مع شارع ألكالا، لأنه يتناول كل ثلاثاء قهوة جالسًا على كرسي مرتفع في ستاربكس بجوار النافذة الزجاجية. الساعة الآن ١٠:٢٤، وها أنا أرى هدفي مثل نقطة صغيرة في أفق الشارع، وأتخيله يبتسم يمنة ويسرة وكأنه يتجول في بلدة صغيرة ويعرف جميع الناس فيها. ها قد اقترب مني ويده تزهو بحقيبته الجلدية الصلبة، يكاد يقفز وهو يمشي. ثم ينعرج ويدخل المقهى، وكله حيوية وحياة. على العكس مني تمامًا، أنا الذي أستهلكُ اللحظات الأخيرة من احتضاري، بعد أن استرخصتُ خمسةَ عشرَ مليار يوم على موت محقق، لم يتبقَّ لي سوى يوم واحد آخر. أو اثنين، كحد أقصى. أنا على يقين تام بأنني سأموت بعد يوم واحد من اليوم. غدًا، على الأكثر.







يجب على السيد (ي) إنجاز آخر مهمَّة له بصفته قاتلاً محترفاً مأجوراً؛ ولكن هناك عقبة كبيرة تعيقُ تنفيذها: إنَّه اليوم الأخير في حياته.

- هذا النص أكثر من مجرد رواية في أدب الجريمة، إنَّهُ درس حقيقي في الفلسفة. (صحيفة إلموندو).

- قدَّم لنا رينخيل رواية ممتعة، هي في المقام الأول تكريمٌ للأدب. (تيلام. وكالة الأنباء الوطنية الأرجنتينية).

- موهبةُ خوان رينخيل تكمنُ في خياله الخصب. (صحيفة هيومانيته الفرنسية).

- الموت، وكذلك الحياة، لا مفرَّ منهما. لكنَّ موهبة هذا الروائي ستُخادعكَ وستجعلكَ تؤمن بخلاف ذلك. (صحيفة لا فانغوارديا الإسبانية).

